سلسلة محاضرات

لسماحة السيد حسن نصر الله

صبر ونصر

دروس من كربلاء

صَبرٌ ونَصر

دروس من كربلاء

دار المودة

للترجمة والتحقيق والنشر

اسم الكتاب: **صبرٌ ونصر دروس من كربلاء**

سلسلة محاضرات لسماحة السيد حسن نصر الله

إعداد: دار المودّة للترجمة والتحقيق والنشر

إخراج وطباعة: DBOUK 00961 3 336218

الطبعة الأولى: أيلول 2017–1439 هـ

ISBN: 978-614-464-016-6

Lebanon , Beirut , sfeir , Moukarzel street
Mob : 00961 70 724 300 | Telefax : 00961 1 270 664
info@diwan-kitab.com | Diwan.kitab.dm@gmail.com

سلسلة محاضرات

لسماحة السيّد حسن نصر الله

صبر ونصر

دروس من كربلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس العناوين

مقدمة الناشر.. 9

الفصل الأول

حقيقة النصر الحسيني في حسابات الدنيا والآخرة

تمهيد.. 13

في بيان حقيقة النصر ومستوياته.. 14

قراءة أهداف المواجهة بالحساب الدنيوي.. 19

استشراف وقائع المواجهة وما بعدها.. 24

نتائج المواجهة.. 30

قراءة النتائج بالحساب الأخروي.. 36

النتيجة النهائيّة.. 44

الفصل الثاني

الصراع الحسيني: قراءة في جذور المواجهة وأصولها

المرحلة الأولى: تشخيص المعركة وتحديد حقيقتها وميدانها........ 50
وقفة على أحداث قصة آدم وإبليس.. 51
معرفة العدو وتحديد حقيقة أهدافه...................................... 54
عودٌ لأحداث المواجهة الآدمية الإبليسية................................. 59
خلاصة.. 65
المرحلة الثانية: معركة وجود الإنسان................................... 68
إبليس وإمكاناته... 70
المطلوب منّا.. 75

الفصل الثالث

في طبيعة النشاط الإبليسي وسُبُل ومقدّرات مواجهته

آدم وحوّاء...من يتحمّل المسؤوليّة؟.................................... 82
إبليس، الخطاب والمقدّرات... 86
العوامل المساعدة لإبليس.. 88
مؤشرات واقعية على طبيعة عمل إبليس................................. 93
نقاط قوّة الخطاب الإبليسي.. 99
مقدرات الإنسان في مواجهته مع إبليس................................ 109
إرشادات لا بد منها في المواجهة مع إبليس............................ 115

وقفةٌ تفحّصية على واقعة كربلاء 126
معركتنا الأساسيّة 128

الفصل الرابع

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حركة الإمام الحسين عليه السلام

تمهيد 135
أولًا: المعالجة النظرية لمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... 136
ثانيًا: المعالجة التطبيقية لمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... 146
وقفةٌ على أحداث الحقبة المعاصرة 148
الأخطار الداخلية الحافّة بالمجتمع اللبناني 152
المسؤوليات المترتبة لمواجهة هذا الخطر 161

الفصل الخامس

قراءة استرشادية في دلالات الحراك الحسيني

في مفهوم الصبر ومتعلقاته

صنوف الابتلاءات الإلهية ومستوياتها 175
في تعريف معنى الصبر، وذكر ثماره الدنيوية والأخروية 179
تصانيف الصبر 189
مصادر تحصيل ملكة الصبر 194
إرشادات مسلكية في ظل واقع اليوم 201
وقفة على موضوع الاختلاط 206

الخاتمة 211

مقدمة الناشر

لقد بدأ صراع الحق والباطل، منذ أن عصى إبليس الأمر الإلهي ولم يسجد لآدم عليه السلام، وتوعده - هو وبنوه - بأن يضلهم ويغويهم ليحرفهم عن الصراط المستقيم، حسداً وبغضاً وتكبراً.

فتشكل بذلك معسكران، واحدٌ للحق، وفيه أنبيائه الله ورسله وأوليائه الصالحين، وآخر للباطل، وفيه ابليس وجنوده من الإنس والجنّ. ولا يزال الصراع قائماً، يطال البشرية على كل صعيد، ليعيش الإنسان معها البلاءات والابتلاءات، على صعيده الشخصي الفردي وفي فضائه المجتمعي. لتكون مسؤوليّة جبهة الحق على عاتق الإنسان المؤمن، في ميدان نفسه أولاً وقبل كل شيء.

وكانت كربلاء، شاهداً على أشرس معارك الحق والباطل ضراوة، حيث ينهض المظلوم من بين أجساد أحبته المقتولين ظلماً، يكابد ألم السبي والأسر، ويقف في محضر الطغاة ليُسأل - فيعري السؤال صاحبه ويكشف حقيقة الصراع - «كيف رأيت صنع الله بأخيك؟»... فيجيب المظلوم والأصفاد في يديه... «ما رأيت إلا جميلا».

إنه الصبر الجميل، الذي تطرق إليه سماحة الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله على مدى الليالي العاشورائية في العام 1438هـ في مجمع سيد الشهداء عليه السلام.

ونظراً لأهميّة هذه المحاضرات، فقد وجدنا من الأهمية تحريرها في هذا الكتاب وتقديمها للقارئ، سائلين الله عز وجل لنا ولكم حسن العاقبة والفوز العظيم.

الفصل الأول

حقيقة النصر الحسيني
في حسابات الدنيا والآخرة

تمهيد

لا بـأس، قبل الـشروع فـي التفصيل الـوقـوف قليلًا على العنوان الذي اخترناه لإحياء مناسبة عاشوراء لهذا العام[1]، وهو «صبرٌ ونصر»، وذلك لاستظهار بعض دلالاته المعنوية، والاستفادة منها في توجيه المباحث المبتغى طرحها. فعاشوراء، في منظورنا عنوان صبر ونصر، صبرٌ على الأذى يكون مؤداه النصر.

ولعل أول ما يمكن طرحه من مسائل حول هذا العنوان هو استغراب البعض من توصيفنا لواقعة عاشوراء، وهي المعركة التي استُشهد فيها القائد، وكذا المقاتلون، وسُبيت فيها النساء، وجرى فيها ما جرى من الوقائع المعلومة، توصيفنا لواقعة - نتائجها بهذا الشكل - بـ«النصر».

---

(1) يتألف الكتاب من مجموعة المحاضرات الثقافية التي ألقاها سماحة الأمين العام في الليالي العاشورائية للعام 1438 للهجرة.

وسأسعى في بيان هذه المسألة، ابتغاءً للموضوعية، إلى تجنّب أسلوب الخطابة الحماسية والشعارات الرنانة، مستعيضًا عن ذلك بالحجج والاستدلالات المنطقية المستندة إلى وقائع الحدث العاشورائي. وسأعمد إلى عدم اقتصار البحث على الجانب التاريخي وحده، بل سأقدّم هنا رؤيتنا للحاضر بالاستفادة من وقائع التاريخ في مسعى لاستخلاص العبر.

في بيان حقيقة النصر ومستوياته

وفي خصوص موضوع النصر، فإن المعلوم أنه عند حصول أية مواجهة بين جبهتين أو محورين، وعمومًا بين جماعتين، فإن ذلك سيؤدي إلى سقوط شهداء وجرحى، وقد يؤدي إلى وقوع أسرى في يد الخصوم، وإلى كثير من الخراب والدمار، مضافًا إلى ما يستتبع كل ذلك من أحزان وآلام، وهذه نتائج لا يمكن تجنبها في أية معركة عسكرية، كما أنها تطال كلا الجهتين المحتربتين، ولا يمكن لجهة تجنّب نتائج كهذه تجنّبًا تامًا مهما بلغ حجم إجراءاتها

الاحترازية. ومن هنا فهذا النوع من النتائج التي تطال كلا جهتَي المعركة ليس هو معيار النصر. فما هو المعيار إذًا؟

إن معيار النصر الواقعي يستند إلى نوع آخر من النتائج، ولكي نتجنّب اللجوء إلى مصطلحات تخصصية معقدة، فإننا سنكتفي بالاستفادة مما عايشناه خلال السنوات الماضية في بعض الحروب والمعارك من أحداث ونتائج متداولة اليوم في العالم. فنقول: إن هناك مستويين من النتائج التي يمكن على أساسها نسبة مفهوم النصر لجهة دون أخرى، وهما (المستويان) مع تمايزهما قد يتكاملان ويجتمعان في بعض الحالات:

المستوى الأول: هو تعطيل أهداف العدو، إذ المفترض أن أي عدو إنما يبني كل جهده العسكري الذي يبذله من خلال عدوانه وحربه ومعاركه على مجموعة أهداف مرسومة تحقق له مصالح استراتيجيةً مفترضة. في هذا المستوى فإن التمكن إمّا من تعطيل كلّ أهدافه، أو بالحدّ الأدنى تعطيل أهدافه الأساسية، مع تمكنه من إنجاز بعض الأهداف الثانوية أو المقطعية، هو أمر كافٍ

كمعيار للنصر. ومن أمثلة ذلك وقائع حرب تموز من العام 2006، حيث كان للعدو الصهيوني مجموعة أهداف متوخاة من عدوانه على لبنان، تتراوح ما بين العسكرية والسياسية والميدانية وغيرها، وتتعدد مستويات تأثيرها الجغرافي بين ما هو على المستوى اللبناني وما هو على مستوى المنطقة (الشرق الأوسط الكبير)، ذاك مضافًا إلى مجموعة أهداف جزئية تابعة للأهداف الكبرى؛ فعندما تتمكّن المقاومة من منع العدو من تحقيق أهدافه المتوخاة فإنها تكون قد انتصرت، حتى لو نتج عن هذا الانتصار سقوط شهداء وحدوث خراب ودمار، إذ هذا من النتائج الطبيعية للحرب.

أما المستوى الثاني، فهو مستوًى أعلى لا يكفي فيه أن تمنع عدوك من تحقيق أهدافه فحسب، بل يحصل فيه أن تحقق أهدافك الخاصة أيضًا. مثلًا، في العام 1982م كان لاجتياح العدو الإسرائيلي للأراضي اللبنانية أهداف عسكرية وأمنية وسياسية، تتعلق بلبنان والقضية الفلسطينية والمقاومة الفلسطينية وسوريا والمنطقة

كلها، من أبرزها السيطرة على لبنان. وفي المقابل سعت المقاومة، منذ عام 1982، إلى منع العدوّ من تحقيق أهدافه، كما ووضعت لنفسها أهدافها الخاصة، التي كانت: استنهاض الناس، واستنزاف العدوّ، وصولًا إلى تحرير الأرض والأسرى دون قيد أو شرط أو منّة ودون أية مكافآت للعدوّ، وامتد سعيها هذا على مدى الأعوام من سنة 1985م إلى سنة 2000م. وفي يوم 25 أيار من العام 2000م، شهد العالم أجمع أن المقاومة تمكّنت أولًا من منع العدوّ الإسرائيلي من تحقيق أيٍّ من أهداف اجتياح العام 1982م، مضافًا إلى تحقيقها لأهدافها الخاصة، من استنزاف العدوّ، واستنهاض الأمّة، وتقديم النموذج، وتحرير الأرض والأسرى، واستعادة السيادة دون قيد أو شرط وبلا مكافآت أيضًا. وهذه أعلى مستويات النصر.

مع الحدث العاشورائي والمواجهة الحسينية – اليزيدية

وبالعودة لواقعة عاشوراء التاريخية، نقول إن التاريخ

يحدثنا عن معسكرين وقعت المواجهة بينهما، هما معسكر الحسين عليه السلام ومعه تلك الثلّة القليلة، ومعسكر يزيد ومعه جيشه الضخم، وقد كان لكل من هذين المعسكرين أهدافه المتوخاة من هذه المواجهة.

والأهـداف هـذه لا بد من لحظها ببعدَي الحساب الدنيوي والأخروي، ليصح عندها الكلام على نصر أو هزيمة حقيقيين. والتمييز بين البعدين على قدر من الضرورة، حيث إن من الممكن لجبهة أن تحقق انتصارًا على مستوى اللحاظ الأخروي، بأن تحقق مرضاة ربها بسعيها للجهاد وبذل كل شيء في سبيله، وتُمنى في الوقت عينه بهزيمة على مستوى اللحاظ الدنيوي، بأن تفشل في تحقيق أي من أهدافها الدنيوية؛ كما ويمكن في المقابل أن تحقق انتصارًا وإنجازًا على مستوى اللحاظ الدنيوي، وتُمنى في الوقت عينه بالفشل والهزيمة على مستوى اللحاظ الأخروي.

فهل كان نصر الحسين عليه السلام الذي نتغنى به ونحمله شعارًا نتمثّله في كل حراكنا نصرًا بأحد هذين اللحاظين دون الآخر أو باللحاظين معًا؟

سنفصّل في التالي الكلام في كل من المستويين لنخلص إلى نتيجة واضحة كجواب على المسألة المطروحة.

قراءة أهداف المواجهة بالحساب الدنيوي

فيما خص لحاظ الحساب الدنيوي، فإن لنا أن نسأل بدايةً: ما كانت أهداف يزيد؟

عندما توفي معاوية بن أبي سفيان انتقلت السلطة والخلافة من بعده إلى ابنه يزيد، الذي كان يسعى إلى أخذ البيعة من كل أبناء الأُمّة ولو بالقوة، إلا أن بعض كبار الشخصيات في الأُمة الإسلامية آنذاك رفضوا مبايعته، وكان في مقدّمهم الإمام الحسين عليه السلام. ونتيجةً لذلك، أرسل يزيد إلى والي المدينة طالبًا منه أخذ البيعة من الحسين بن علي عليه السلام، ومن عبد الله بن الزبير، ومن عبد الله بن عمر، وغيرهم، متْبِعًا طلبه بطلب ضرب عنق كل من يرفض المبايعة. وقد كان يزيد يسعى، من خلال قراره هذا، وتداعياته التي ظهرت لاحقًا، إلى تحقيق جملة من

الأهداف، فمثلًا، لا خلاف بين المسلمين، سنّةً وشيعةً، على أن أحد أهداف يزيد كان تثبيت ملكه وسلطانه، والبقاء في السلطة أطول مدة ممكنة، مع تحقيق تمام التمكن والسيطرة، حيث إن ملكه وإمرته على المسلمين لا يمكن أن تثبت بدون مبايعة هؤلاء الكبار من صحابة النبيّ أو أهل بيت النبيّ له، فكان لا بدّ من أخذ البيعة منهم وإلا يبقى سلطانه متزلزلًا، هو إذًا أراد تحصيل الشرعية من الحسين عليه السلام، لأنه عليه السلام بقيّة أهل البيت، وبقية أصحاب الكساء، وابن بنت نبيّ الله الذي لا يوجد على وجه الأرض ابن بنت نبيّ غيره، ولذلك كان يزيد مهتمًا وبشدة بتحصيل البيعة من الحسين عليه السلام.

كما وكان من أهدافه التي لا نقاش فيها أيضًا أنه أراد إرساء حكم أموي سفياني ثابت، يضمن بقاء الحكم والسلطة والملك في آل أبي سفيان من بعده، أي في أحفاد أبي سفيان.

ولو أردنا التوسع أكثر في الكلام عن أهداف يزيد المبطّنة، لقلنا - وهذا كلام مقبول في الدائرة الشيعية

وجزء كبير من الدائرة السنيّة – بأن شخصية يزيد وعقله ونواياه حملت أهدافًا تتجاوز في حقيقتها ما ذكرناه، إذ كانت فعاله وارتكاباته تستهدف أصل الإسلام كدين، كانت تهدف إلى إخراج دين محمد بن عبد اللهِ من ثقافة الأمّة ووعيها ووجدانها، والعودة بالأمة إلى جاهلية يحكمها مُلكٌ عضود من البيت السفياني. وما يرويه التاريخ من وقائع يؤكد هذا الهدف. فعمل يزيد وأداؤه، مع الحسين عليه السلام وأهل بيت النبيِ أولًا، ثم ما فعله في مدينة الرسولِ مع صحابة النبي من المهاجرين والأنصار وأبنائهم وبناتهم ثانيًا، ثم قراره بعد ذلك بمحاصرة مكّة وأمره بضربها بالمنجانيق لتستسلم وكان قد تحصّن فيها عبد الله بن الزبير، كل ذلك وغيره من سلوك يزيد بن معاوية يؤكّد ويؤيّد أنّ هدفه كان ضرب الإسلام لا مجرد استلام السلطة والحكم. كما أن من أهدافه أيضًا، التي يمكن اعتبارها أهدافًا فرعيةً أو شبه أساسية، هو الثأر والانتقام، الثأر من رسول اللهِ ومن أهل بيته ومن صحابته، وهذا من الأهداف المؤكدة التي سعى يزيد إلى تحقيقها

فترة حكمه، وتجلى سعيه هذا في كربلاء، وفي المدينة، وكذلك في مكة.

ولـو أردنـا، في إزاء ذلـك، الـوقـوف على أهـداف الحسين عليه السلام، فإن بالإمكان القول وبشكل إجمالي إن أهم أهداف الحسين عليه السلام في مواجهته ليزيد كانت منع يزيد من تحقيق أهدافه، مضافًا إلى سعيه الدؤوب لحفظ الإسلام وتحصين ساحته، وضمان استمراريته.

ولو تتبّعنا نفس السياق التتابعي في تحديد الأهداف التفصيلية للإمام الحسين عليه السلام، فإن لنا أن نقول إن أول أهدافه عليه السلام كان عدم إعطاء الشرعية ليزيد بن معاوية، الطاغية الذي يستهدف الإسلام وكرامة الأمّة، في سبيل زعزعة سلطانه وإسقاطه بشكل عاجل، وكان ذلك برفض إعطائه البيعة رفضًا قاطعًا، وقد كان ذلك واضحًا خلال حركته من المدينة، إلى مكة، إلى كربلاء، إلى الحصار، إلى العطش، هو هدف وضعه الحسين عليه السلام وأخلص له حتى اللحظات الأخيرة.

ومن أهـداف الحسين عليه السلام في السياق نفسه كان

كشف حقيقة يزيد. إذ كان غياب العمل الإعلامي المطلوب قد أدى إلى أن يصدق كثير من الناس أنَّ يزيد رجل مؤمن، عالم، عابد، زاهد، وهم قد كانوا بايعوه على هذا الأساس. فأراد الإمام عليه السلام، والحال كذلك، أن يكشف للمسلمين حقيقة هذا الطاغية وزيفه، وقد كان هذا عنصرًا أساسيًا في منع تثبيت هذا السلطان وهذا المشروع.

ومن جملة الأهداف التي طرحت في السياق أيضًا كان استنهاض الأمّة. أولئك الناس الذين كانوا قد عايشوا – خلال عشرين عامًا – حكم معاوية بن أبي سفيان، فاعتادوا إثر ذلك الخنوع والخضوع، وفقدوا العزم والإرادة والحماسة، كما وتمّ تزوير الكثير من الحقائق لهم، فكان المطلوب استنهاض هممهم، فلم يكن الكلام وحده كافيًا لاستنهاضهم، بل كانت المواجهة الدامية، والشهادة المظلومة الحقّة التي نتجت عنها، هي الأقدر على استنهاضهم.

والأرقى في أهداف الحسين عليه السلام كان الحفاظ على الإسلام وضمان بقائه والدفاع عنه، وذلك من خلال

إسقاط سلطان يزيد بن معاوية، الحاكم المتآمر على الإسلام.

هذه، إذًا، كانت أهداف يزيد وهذه أهداف الحسين عليه السلام. وقد بات بوسعنا بعد ذكرها أن نقف على قراءة تاريخية للوقائع، نستخلص بعدها النتائج المترتبة على صعيد الحساب الدنيوي.

استشراف وقائع المواجهة وما بعدها

طلب يزيد البيعة فرفض الحسين عليه السلام ذلك وأبى. في المدينة بدايةً، ثم في مكة، وصولًا إلى العراق، فكربلاء، حيث حصلت المواجهة الدامية التي استشهد فيها الحسين عليه السلام ومن معه، وسُبيت بنات رسول اللهِ من الكوفة إلى المدن العراقية، فالمدن الشامية، وصولاً إلى دمشق، ومنها عودًا إلى المدينة. انتشر خبر شهادة الحسين عليه السلام بين المسلمين، واهتزت إثره أركان الأمّة جمعاء، ذاك أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن شخصًا عاديًا أو مجهولًا عند الناس، بل كان عليه السلام معروفًا لا

يجهل رفعة شأنه أحد، فتزلزلت لقتله الأمّة، وشاع بين الناس الاضطراب والتململ وضجّت الناس بواقع أن يقتل هذا الخليفة ابن بنت رسول اللهِ، وبدأ الحراك الذي ولَّد فيما بعد مجموعةً من الثورات، كما ووصلت الفضيحة إلى الشام بعد ذهاب وفد من المدينة المنوّرة إليها، واكتشف الناس هناك حقيقة يزيد.

وقد كان لزيارة هذا الوفد أثرٌ كبيرٌ آخر، هو أنَّ أعضاء هذا الوفد - الذين قد يُفترض أنهم كانوا، كحال معظم أهل المدينة المنورة، مضللين اشتبهت عليهم الأمور - إثر زيارتهم للشام ولقائهم بيزيد تبيَّن لهم أنَّ يزيد يحمل كل المواصفات السيئة التي وصفه بها الحسين عليه السلام، من كونه رجلًا فاسقًا فاجرًا قاتلًا للنفس المحترمة، إلى آخره، ففهموا سبب رفض الحسين عليه السلام القاطع لبيعته، وعرفوا أنه، فضلًا عن حمله لكل تلك الرذائل المذكورة، لا يحمل أيًا من الفضائل التي ينبغي للإنسان المسلم التحلي بها، فرجعوا إذاك إلى المدينة وأخبروا أهلها بما رأوا، فخلعت عندها المدينة بيعة يزيد.

بعدها أرسل يزيد جيشًا إلى المدينة، مدينة الرسول ﷺ التي تحتضن قبرهِ وقبور صحابته وغير ذلك من معالم عصر النبوة المبارك، حدث ذلك في شهر ذي الحجّة من العام 63 للهجرة، وكان في المدينة بقية المهاجرين والأنصار من صحابة النبيِ وعائلاتهم، كما وبقية أهل البيت عليهم السلام.

كان يزيد قد نصّب على الجيش قائدًا اسمه مسرف بن عقبة – اسمه مسلم، لكن كتب التاريخ السنيّة والشيعيّة تذكره باسم مسرف بن عقبة وتلعنه – قام بمحاصرة المدينة التي أبت أن تستسلم وقاتلت إلا أنها سرعان ما سقطت. فدخل مسرف هذا المدينة بأوامر من يزيد بن معاوية – وهذا مثبت في كل كتب التاريخ – الذي أمره باستباحتها ثلاثة أيام، فاستباحها لجنوده مدة ثلاثة أيام.

يروى في خصوص هذا الحدث أن جنود يزيد دخلوا مسجد رسول اللهِ ببغالهم وبحيواناتهم، وانتهكوا حرمة قبرهِ، مضافًا إلى من قتلوا من الناس وما سُفك من الدماء في مدينة الرسولِ. وقد ذكرت كتب التاريخ أنه بعد سنة أو أقل من سنة من هذه الواقعة أنجبت في

المدينة ألف امرأة مسلمة من غير زوج – ما يدل على أنهن كن قد تعرّضن للاغتصاب.

وسأقدّم هنا إحصائيةً موجودةً في كتب التاريخ، ونقلتها بعض هذه الكتب عن أحد كبار علماء بني أمية في عصر آل مروان؛ ينقل الرجل أن عدد القتلى في المدينة المنوّرة خلال هذه الأيام الثلاثة كان سبعمئة من وجوه الناس المهاجرين والأنصار، وعشرة آلاف من عامّة الناس، وأن عددًا ضئيلًا منهم قُتل في المواجهة، أما البقية فقد جيء بهم وتم قتلهم وقطع رؤوسهم حتى تكاثرت الجثث وأريقت الدماء، ولو قُدِّر لذلك المشهد أن يُصوَّر ويُقدَّم طوال التاريخ للبشرية لما كان سيكون لإنسان مسلم أو غير مسلم أن يجرؤ على الدفاع عن يزيد بن معاوية أو أن تخفى عليه حقيقة يزيد بن معاوية ومشروعه.

وبودّي هنا الوقوف على وضع العالم الإسلامي اليوم، لمقارنة حال وممارسات بعض الجماعات الإسلامية التكفيرية المعاصرة بحال وممارسات يزيد وأتباعه، وقد استوقفني طرح لأحد العلماء المحترمين، وأنا أوافقه تمامًا

في الـرأي، يقـول إنّ داعـش ليست نموذجًا جـديدًا من الخوارج، بل نموذج جديد من الأمويين. فالمطلوب في ما خص حركات من مثل داعش وأخواتها البحث عن جذورها ومرتكزاتها في تاريخ العالم الإسلامي، ينبغي النظر إلى أحداث العام 63 للهجرة في مدينة الرسولﷺ، وبإمكان الباحث الاطلاع لا على كتب الشيعة وإنما كتب إخواننا من علماء السنة كيما يرى آراءهم بيزيد وبمسرف بن عقبة.

وبالعودة إلى مسرف، فإنه، بعد أفعاله الشنيعة تلك، أخذ من بقيّة أهل المدينة البيعة. ولكن على أيّ شيء؟ هل طلب منهم هـذا المسرف القاتل السفّاك البيعة ليزيد بن معاوية كخليفة وأمير وإمام وحاكم فقط؟ هو لم يكتفِ بذلك، بل طلب منهم أن يبايعوا على أنهم هم وأولادهم وأموالهم ملكٌ وعبيدٌ ليزيد بن معاوية، ومن أبى ذلك قُتل وقُطع رأسه.

والأفـظـع مـن كـل ذلـك، أنـه كـان يـعـتـزم، بـنـاءً على أمر سيده يزيد أيضًا، بعد انتهائه من حصار المدينة، التوجه إلى مكة ومحاصرتها واستباحتها، كما استُبيحت

المدينة، في سبيل أن يبايع أهلها كما بايعت المدينة، فكان المطلوب منهم أيضًا البيعة على أنهم عبيد ومُلك ليزيد بن معاوية. ولكن مسرف السفاح هذا أصيب قبل تنفيذ المهمة الجديدة بالذهاب إلى مكة بمرض منعه عن تنفيذها، وسلّم الراية إلى من هو أسوأ منه.

اللافت أن مسرفًا يقول في آخر وصيته: اللهمّ إني لم أعمل عملًا صالحًا قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمّدًا رسول الله أحبُّ إليَّ من قتل أهل المدينة ولا أرجى عندي في الآخرة.

فقد كان هؤلاء يتقرّبون بأفعالهم وجرائمهم إلى الله، وكذا تجد اليوم داعش وأخواتها، يتقرّبون إلى الله بالذبح والسبي والقتل وهتك الحرمات وتدمير المقدّسات، ذاك أنهم أحفاد مسرف بن عقبة وحملة فكره ومشروعه.

ذهب القائد الجديد إلى مكة وضرب حولها حصارًا، ويروي التاريخ أن جيش يزيد رمى مكة بالمنجانيق، إلا أنَّ حصار مكة لم يطُل كثيرًا، ذاك أنَّ يزيد بن معاوية توفي في شهر ربيع الأول من العام 64 للهجرة، ولم يثبت

حتى يومنا هذا كيفية موته، فذهب البعض إلى أنَّه مات مقتولًا، وآخرون إلى أنَّه مات جراء حادث، إلا أنَّ شيئًا من الآراء لم يثبت، خصوصًا أنَّه لا توجد جثة ليزيد.

بعد موت يزيد تولى الحكم وليّ عهده ابنه معاوية بن يزيد، الذي خلع بعد أيام قليلة نفسه من الخلافة وتوفي بعد بضعة أسابيع ويعتبر موته حادثًا غامضًا أيضًا، وسقط إثر موته البيت السفياني في ربيع الثاني من العام 64 للهجرة، أي بعد أقل من أربع سنوات على معركة كربلاء.

هذه كانت الوقائع المرتبطة بالمواجهة وما بعدها. ننتقل الآن لقراءة النتائج التي أصبحت واضحةً بعد ما قدمنا من السرد.

نتائج المواجهة

لو أردنا أن نقرأ – وفق الحسابات الدنيوية التي لا يزال الكلام بصددها – النتائج المترتبة على مواجهة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ويزيد، فإنَّ أول ما نلحظه أنَّ الإسلام الذي أراد يزيد أن يهدم أركانه، من أهل البيت إلى الصحابة إلى

المهاجرين والأنصار، من المدينة إلى مكة، هذا الإسلام بقي وامتدّ واتسع كميًا ونوعيًا إلى أن وصلنا اليوم إلى أمّة مسلمة كبيرة يفوق تعداد أبنائها المليار والأربعمئة مليون إنسان، يعود الفضل في إسلامهم بمختلف مذاهبهم وطوائفهم وفرقهم إلى دماء الحسين عليه السلام وتضحياته في كربلاء، فلولا تضحياته لما كانت ستتاح لأي من المذاهب الإسلامية الموجودة اليوم فرصة الوجود، فمعلوم أنَّ المسلمين في ذلك العصر لم ينقسموا إلى مذاهب سنية وشيعية كما اليوم، وكلّهم كان دينه مهددًا لو لم تحفظ دماء الحسين عليه السلام روح الإسلام وحقيقته.

إذًا، فالنتيجة الأولى لتلك المواجهة كانت بقاء الإسلام وحفظه، ولذلك فإنَّ بعض العلماء يفسرون الشق الثاني من قول رسول اللهِ: «حسينٌ منّي وأنا من حسين»، بأنَّ بقاء الإسلام ودوامه وحفظ تعاليمه إنما كان بالحسين عليه السلام.

ثانيًا، بقاء ذكر محمّدٍ، وقد كان من ضمن أهداف يزيد محو ذكر محمّدٍ وآله عليهم السلام، إلا أنَّ واقع الأمور يؤكد

عكس ذلك، حيث إنَّ ذكرهم لا يزال منتشرًا إلى يومنا هذا في كل أقطار الأرض، في حين لم تبقَ ليزيد باقية تُذكر. ولذلك فإن السيدة زينب عليها السلام عندما خطبت في مجلسه فإنها بيّنت له أنَّ أهدافه التي كان رسمها لهذه المواجهة قد سقطت، فقالت فيما خصّ بقاء الإسلام: «لن تُميت وحينا» وهو دين النبي الأكرمِ، وفيما خص ذكر أهل البيت عليهم السلام: «لن تمحو ذكرنا».

ثالثًا، سقوط المشروعية عن حكم يزيد، حيث إنَّ قتل الحسين وسبي نسائه يُعتبر فضيحةً كبرى كشفت زيف يزيد وحقيقته وأسقطت عنه الشرعية، كما ودفعت الأمّة إلى الثورة عليه، وقد ذكر التاريخ أنَّ ثورات عدة قامت على امتداد العالم الإسلامي على حكم بني أمية بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام، من محبي الحسين عليه السلام ومن غيرهم، حملوا راية الثأر لدمائه، وسرعان ما سقط البيت السفياني بأقل من ثلاث سنين ونيف بعد شهادة الحسين عليه السلام.

وكذا حال البيت الأموي المرواني – حيث انتقل

الحكم بعد آل أمية إلى آل مروان – فقد سقط نتيجة ثورة العباسيين عليه، وقد كانت الراية والشعار الذي استخدمه العباسيون في إسقاط سلطان بني أميّة «يا لثارات الحسين عليه السلام». فكثيرة كانت الثورات التي قامت ودعت إلى إسقاط حكم بني أميّة وكان كلها يستفيد من ثورة الحسين وقيامه، من التوابين إلى المختار حتى عبد الله بن الزبير وعبد الله بن الأشعث ومن جاء بعدهم كزيد بن علي الشهيد العظيم سلام الله عليه، وكل الذين وقفوا، وصولًا إلى بني العباس.

إذًا، فكل أهداف يزيد لم تتحقق. نعم، بالإمكان القول إنَّ أحد أهدافه قد تحقق وهو الثأر؛ الثأر من آل بيت الرسولِ وصحابته، حيث أبكاهم وأفجعهم بقتل أحبتهم، والثأر من مسلمي المدينة حيث فعل بأهلها ما ذكرناه من الدواهي، والثأر أيضًا من مكة المكرمة وأهلها حيث حاصرها وروّع أهلها، ولكن ذلك كله انتهى، بل كان له امتدادات وآثار سلبية وعكسية تخدم أهداف الحسين عليه السلام لا أهدافه.

أما الحسين عليه السلام، فإنَّه لا يزال إلى يومنا هذا شعارًا لحفظ الإسلام، ولا يزال دمه نبراسًا لحماية الإسلام وحراسته، واستنهاض همم المسلمين، وفضح الجاهليين المتوحشين، أعداء هذا النبي من الداخل والخارج. وقد بانت بركات وآثار ثورته ودمائه الطاهرة في أيامنا هذه، حيث تحرّكت بهديه الشعوب المقهورة، كما حصل في زمن الثورة الإسلامية في إيران، وفترة الاحتلال الصهيوني في لبنان، وما يحصل الآن من مواجهة كل الجماعات التكفيرية من داعش وأمثال داعش، هذا المنطق، وهذه الروح، وهذه الإرادة، وهذا العزم، كل ذلك اكتسبته الشعوب من بركات دمه، الذي ما يزال أثره حاضرًا وفاعلًا قويًا.

أختم هذه الفقرة بشاهد جليّ على ما ذكرت، متممًا بذلك الكلام في جانب الحساب الدنيوي، الذي اتضح فيه أنَّ المنتصر دنيويًا كان الحسين عليه السلام.

عندما عاد الإمام زين العابدين عليه السلام من رحلة السبي إلى المدينة، كان من جملة من استقبله شخص

يدعى إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله – من الشخصيات المعروفة في المدينة – قال للإمام عليه السلام عندما لقيه: «من الغالب؟»، والسؤال هذا قد يصلح إلى يومنا هذا، أي بعد أكثر من ألف عام على شهادة الحسين عليه السلام، لنسأل عن المنتصر في تلك المعركة؟ وجواب الإمام زين العابدين عليه السلام للرجل، والذي أتى بعد أسابيع قليلة من شهادة الحسين عليه السلام يصلح أيضًا كجواب على السؤال اليوم، أجابه الإمام – وقد كان جوابه مقتضبًا ببضع كلمات إلا أنَّه يختصر كل التحليل الذي قدّمناه – قائلًا: «إذا دخل وقت الصلاة فأذِّن وأقِم تعرف من الغالب»، لأنَّ المعركة كانت واقعًا حول مضامين الأذان والإقامة، فما دامت الصلاة قائمةً متصلة بذكر النبيِ، فإنَّ كل مصلٍّ سيعرف أنَّ الغالب كان الحسين عليه السلام، وأنَّ الذي لحقت به الهزيمة – وظهرت فيما بعد مؤشرات هزيمته واضحةً جليّةً – كان يزيد ومشروعه وأهدافه.

قراءة النتائج بالحساب الأخروي

إنَّه لمن الواضح أنَّ المنتصر في المواجهة في حسابات الآخرة هو الإمام الحسين عليه السلام، لكننا سنتحدث عن هذا الجانب باختصار لأخذ العبرة والتزوّد، وسنشير فيما يلي إلى أهم مؤشرات نصره الأخروي.

فنشير، أولًا، إلى أنَّ الحسين عليه السلام كان في كل معركة كربلاء وحركتها يسعى إلى تأدية تكليفه الشرعي، تكليفه الإلهي، ليؤدي حق العبودية لله سبحانه وتعالى، إذ الحسين عليه السلام عبدٌ مخلص لله، ومن يقرأ دعاء الحسين عليه السلام يوم عرفة يكتشف جانبًا عظيمًا من جوانب عبودية الحسين لله عز وجل، فما يرضاه الله ويريده ويأمر به عز وجل يُقدم عليه الحسين عليه السلام مهما كانت الأثمان، وهذا هو حق ما يسمى بأداء التكليف. وقد كان تكليف الحسين عليه السلام، منذ اللحظة التي وصل الأمر فيها إلى والي المدينة من قِبَل يزيد أن خُذ البيعة من الحسين

فإن أبى فاضرب عنقه، رفض البيعة ليزيد بن معاوية، الذي كان يحمل مشروعًا منعه عن احتمال فكرة عدم أخذ البيعة، وقد التزم إمامنا عليه السلام منذ اللحظة الأولى بتكليفه.

وإنَّ مسألة تحديد تكليفنا الشرعي هو سؤال علينا أن نسأله لأنفسنا دائمًا، وفي كل موقف واستحقاق، ما هو تكليفي؟ في هذا الموقف أو ذلك، وفي هذه الواقعة أو تلك، ليس المراد ما أهوى وما أحب، وما هي مصلحتي الشخصية، بل المهم أن أحدد تكليفي الشرعي الواقعي. فنحن عبيد الله في هذه الدنيا، دار الامتحان والاختبار، وقد خُلقنا فيها لنثبت أيّنا أحسن عملًا، فعلى الإنسان أن يسأل نفسه عن تكليفه الذي يريده الله منه ويرضي الله سبحانه وتعالى عنه ليلتزمه ويعمد إلى أدائه، متغاضيًا عما يرضي هواه وأهواء أقاربه أو أصدقائه أو جماعته أو غيرهم، بل الأصل الذي ينبغي السعي إلى تحقيقه هو رضا الله سبحانه وتعالى.

إذًا، فالحسين عليه السلام علم قاطعًا أنّ تكليفه الشرعي هو

أن لا يبايع يزيد مهما كلّف الأمر، وهنا تبدأ الحكاية، حيث إنَّه لم يكن يوجد في المدينة من يحمي الحسين ويقف معه وينصره، فأصبح تكليفه الجديد مغادرة المدينة، مدينة الآباء والأجداد التي وُلد وترعرع فيها، والتي تحتضن قبر جده رسول الله وأمّه الزهراء، تاركًا وراءه كل تلك المآثر، وقد غادرها بالفعل متوجهًا إلى مكة، مجمع المسلمين الآتين إلى الحج أو العمرة، حيث ترتب عليه تكليف آخر هو تبليغ الناس وإرشادهم إلى حقيقة يزيد ومشروعه وأهدافه ومخاطر تعاظم سلطانه وحكومته، عبر التبيين والشرح والتوضيح والكتابة والمراسلة. ثم عندما أرسل إليه أهل الكوفة «أن أقدم يا ابن بنت رسول الله فإن لك في الكوفة جندٌ مجنّدة» أصبح تكليفه الشرعي التوجه إلى الكوفة التي توفر له فيها أنصار وأعوان وقاعدة شعبية تستقبله وتعينه في مشروعه. وعندما وصل إلى مقربة من الكوفة وجُعجع به إلى كربلاء حيث حوصر مع أهله وصحبه، كان تكليفه الشرعي رفض البيعة ولو أدّى ذلك إلى القتال. وعندما رفض جيش الكوفة تركه دون أن يبايع

أو يُقتل، أصبح تكليفه أن يقاتل دفاعًا عن نفسه وعائلته وأطفاله ورفضًا للبيعة المذلّة، وانتهى الأمر بالشهادة.

إذًا، فالحسين عليه السلام كان، منذ بداية الأحداث، من لحظة طلب البيعة منه، وحتى لحظة شهادته، كان يؤدي تكليفه الإلهي. وهذا نصر حقيقي بالمعيار الأخروي، لأنّ من أهم المنجيات في يوم القيامة أداء التكليف الشرعي الإلهي، المتمثّل بطاعة الله سبحانه وتعالى، والالتزام بما أمر الله به، بمعزل عن أي اعتبار للنتائج المترتبة.

نحن في المقاومة مثلًا، وجدنا أنّ واجبنا أن نقاتل عدوّنا، ولسنا مسؤولين عن النتائج، بل مسؤوليتنا الالتزام بما شخّصناه من التكليف الشرعي، وهو قتال العدو، بمعزل عن تحقق الهدف الدنيوي أو عدم تحققه، لأنَّ تلك نتيجة، والنتائج خارجة عن إطار مسؤوليتنا.

إذًا، فالحسين عليه السلام هو - وفق الحساب الأخروي - المنتصر في هذه الحركة، لأنَّه كان في كل لحظة من لحظات حياته يؤدي تكليفه الإلهي الشرعي.

أما ثانيًا، فنشير إلى مسألة الفوز بالشهادة. إذ قد

يحدث أن يقضي إنسان حياته كلها ملتزمًا بتأدية التكليف الشرعي ثم لا يُختم له بشهادة، وذلك مما يتعلق بمشيئة الله سبحانه وتعالى. فالفوز بالشهادة إذًا هو نصر وغَلَبة وفتح في الحسابات الأخروية.

وهذا سر عشق أمير المؤمنين عليه السلام للشهادة وطلبه الدائم لها، ولطالما وردت على لسانه عبارات تؤكد على هذا المعنى، منها قوله: «والله لابن أبي طالب آنس بالموت [الموت قتلًا في سبيل الله عزّ وجلّ] من الصبي بثدي أمّه»[1]، وقوله: «والذي نفس علي بيده، لألف ضربة بالسيف أهون من موتةٍ على فراش»[2]، وقوله عندما انقضّ ابن ملجم اللعين عليه عليه السلام في مسجد الكوفة وضربه بالسيف على رأسه: «فزتُ وربّ الكعبة»، فقتل الشهادة في فهم واعتبار أمير المؤمنين عليه السلام هو فوز وانتصار.

(1) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، نهج البلاغة، باب المختار من خطب أمير المؤمنين وأوامره، الخطبة 5.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، الجزء 32، الصفحة 61.

إذًا، فما ذكرناه مؤداه الفوز بالآخرة، بما وعد الله سبحانه وتعالى به من النعيم. العبد الذي أدّى تكليفه الإلهي وخُتم له بالشهادة فما الذي ينتظره هناك عند الله سبحانه وتعالى من مقامات ودرجات وكرامة؟ إنَّ وعد الله لعموم المؤمنين والصالحين في تلك الدار الأبدية هو الأمن والأمان والراحة والطمأنينة والسلام والكرامة والنعيم والدرجات والرضوان وغير ذلك، فكيف بأولياء الله الشهداء، أي حال يكون حالهم في تلك الدار؟

عندما يذكر الله سبحانه وتعالى المصير الذي ينتظر الصالحين والمؤمنين والمجاهدين والشهداء في الآخرة، وذلك وارد في عشرات الآيات القرآنية، فإنه يقول حينًا: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1] وفي مورد آخر: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾[2]، وفي غيره: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾[3]، وغيرها من التعابير، فالله العظيم الكبير يوصّف هذا الفوز بالعظيم.

(1) سورة النساء، الآية 13.

(2) سورة الأنعام، الآية 16.

(3) سورة البروج، الآية 11.

وهذا هو مصير الحسين عليه السلام.

ولكن أين يزيد؟ يزيد الذي أطاع هوى نفسه، وأطاع شيطانه، وخالف ربّه، ومات ميتة سوء، فإنَّه انقلب إلى ربه وحاله منذ أن انتقل إلى تلك الدار، كحال آل فرعون: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ – الآن وليس يوم القيامة من يوم موتهم لأنّ القيامة لا غدو وعشي فيها - ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[1].

بعض الناس يقاتل على المُلك في الدنيا، فتجده لا يرعوِ عن أن يكذب، يغتاب، وينمّ، ويفتن، ويرشي، ويدفع المال كي يصبح مختارًا مثلًا، أو رئيس بلدية، أو عضو بلدية، أو نائبًا، أو وزيرًا، أو محافظًا، أو مديرًا، أو رئيسًا، ولكن ذلك كله يذهب. اقرأوا التاريخ، واتعظوا من حال الملوك الكبار، الذين كان امتداد ممالكهم عظيمًا وكبيرًا، وابحثوا عما بقي منهم ومن ممالكهم. المُلك الحقيقي

(1) سورة غافر، الآيتان 45 و46.

هو المُلك يوم القيامة، وعنه يحدثنا الله سبحانه وتعالى في سورة الإنسان في ما ورد عمّا أعدّه للذين أطعموا اليتيم والمسكين والأسير، وعن جزاءهم بالجنة: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾[1].

فمن كان يريد المُلك فالمُلك في الجنة، ومن أراد الجاه فهناك الجاه، ومن أراد العظمة فهناك العظمة، ومن أراد العزّة فهناك العزّة. هذا المُلك الدنيوي، والجاه الدنيوي، والسلطان الدنيوي، والعظمة الدنيويّة، والعزّة الدنيوية، هي أشياء فاقدة للقيمة الحقيقية، تزول وتنتهي ولا تستحق من الإنسان ارتكاب المعاصي بغية الوصول إليها، مهما كانت المعاصي صغيرة.

ونقول في ختام هذه الفقرة فيما خص الحسابات الأخروية: نحن ننتمي إلى ثقافة علمتنا أنَّا إذا كنا ملتزمين بتأدية تكليفنا الإلهي، ماضين في طريق الله، عاملين

(1) سورة الإنسان، الآيتان 19 و20.

مجاهدين في سبيله، فمهما تكن النتائج الدنيوية، فإن ما ينتظرنا في الآخرة هو الفوز، ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾[1]، وهي الشهادة أو النصر، فلا يوجد بالمنطق الإيماني الإسلامي هزيمة، بل النصر هو الحليف دائمًا، نصر شخصي لمن يُستشهد، ونصر للأمة إن هي تحمّلت مسؤولياتها، فإنها ستجني ثمار النصر حتمًا.

النتيجة النهائيّة

وبالعودة للسؤال الذي باشرنا به هذا الفصل نقول: إنَّ ما بيّناه يؤكد أنَّ الحسين عليه السلام انتصر في واقعة عاشوراء بالحسابات الدنيوية وبالحسابات الأخروية. نعم، هو انتصار صُنع بالدماء وبالدموع وبالآلام وبالأحزان، ولكن هذا الانتصار المضمّخ بالدماء ما زالت تعبق منه رائحة الحسين عليه السلام، وقد سمّاه الإمام الخميني قدس سره «انتصار الدم على السيف»، ومعنى انتصار الدم على السيف أنّ أهداف الدم تحقّقت وأُنجزت، وأهداف السيف

(1) سورة التوبة، الآية 52.

سقطت، وما نعيشه اليوم يؤكّد أنَّ الدم انتصر في العام 61 للهجرة على السيف، حيث نجد أنَّ الدم لا زال ينتصر في عصرنا هذا على السيف، الدم المظلوم والمحاصر والمضطهد والغريب والمتآمَر عليه دوليًا وإقليميًا، وهو يقاتل في الحصار وفي الغربة وفي الشدّة في أكثر من بلد وفي أكثر من ساحة وفي أكثر من ميدان.

الفصل الثاني

الصراع الحسيني:
قراءة في جذور المواجهة
وأصولها

بعد أن فرغنا في الفصل الأول من تبيان معنى النصر الحقيقي المنسوب للإمام الحسين عليه السلام في مواجهته التاريخية مع يزيد، وفصّلنا البحث بحيث طال جوانب النصر كلها بالحسابين الدنيوي والأخروي، فإننا سنعمد في هذا الفصل إلى الوقوف على حادثة كربلاء وما جرى فيها ومعالجتها بالبحث في عمق الصراع الذي قامت عليه هذه الحادثة، بأن نوسّع إطار بحثنا لا ليشمل واقعة المواجهة الحسينية اليزيدية فحسب، بل حقيقة وأصل الصراع بين الحق والباطل، وعلينا في سبيل ذلك أن نعود إلى الجذور الأساسية لهذا الصراع، الذي تشهده الأرض في كل زمان، قبل كربلاء وبعدها، وفي هذا الزمن الحاضر وحتى قيام الساعة، كيما يتضح لنا جوهر المسألة وحقيقة وخلفيات هذا الصراع القائم دومًا في الأرض، الذي حدّثنا الله سبحانه وتعالى عنه في كتابه الكريم في العديد من السور القرآنية، فما هي حقيقة هذه المعركة القائمة؟

المرحلة الأولى: تشخيص المعركة وتحديد حقيقتها وميدانها

يحدثنا القرآن الكريم في عدد من آياته عن قصة آدم وإبليس. حيث يمثل آدم مصداقًا لعنوان ومفهوم كلّي هو الإنسان، ويمثل إبليس، وهو اسم لفرد معيّن ومحدد، مصداقًا لعنوان كلي هو الجن.

وعندما نقول أنَّ القرآن يحدثنا عن قصة، فمعنى ذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يحدثنا وهو الذي يروي علينا تفاصيل أحداث هذه القصة، وعند التنبّه لذلك – أي أنَّ الله هو الذي يحدثنا عبر كتابه الخالد – فمعنى هذا أنَّ للقصة المذكورة – وهي هنا قصة الصراع بين آدم وإبليس – أهميةً كبيرةً ودلالات عظيمةً وخطيرةً وأنَّ فيها من العِبَر والدروس ما له تأثير أكيد على حياة الناس في كل زمان، لأنَّ كلام الله المتمثل بالقرآن الكريم ليس مجرد

مصدر سردي تاريخي، بل هو بالدرجة الأولى مصدر هداية للناس أجمعين.

ثم إن تكرار القصة نفسها في أكثر من مورد في القرآن، ببيان زائد حينًا أو بإجمال حينًا آخر، لهو دليل إضافي على الأهمية الفائقة والعالية لهذه القصة وعلى دورها الأساسي في هداية البشرية، وإرشاد الناس، والإضاءة على الطريق، وتحديد المسؤوليات، والإشارة إلى عمق المعركة والصراع القائم.

هذا الصراع هو ما سيكون مورد كلامي في الآتي، حيث سنتناول نفس الحدث أولًا، ثم سأستفيد من دلالاته المعنوية مقاربًا إياه بالأدبيات المعاصرة في هذا الزمن.

وقفة على أحداث قصة آدم وإبليس

قبل أن يخلق الله سبحانه وتعالى آدم، أب البشرية، كان قد خلق السماوات والأرض والملائكة والجن والحيوانات، إلى آخره، وقد كانت الملائكة تعبد الله سبحانه وتعالى. وقد كان من جنس الجن رجلٌ[1]، وهو فرد محدّد مشخّص

(1) ولا ضير من استعمال عبارة «رجل» للجن لأن القرآن الكريم يتحدث في سورة الجن عن رجال من الإنس ورجال من الجن.

اسمه إبليس، كثير العبادة لله عزّ وجلّ، عابد، زاهد، ساجدٌ، راكعٌ، مسبّحٌ، ذاكرٌ، وإنّه ولشدّة عبادته وكثرتها عُدَّ في جَمع الملائكة والتحق بهذا الجَمع المبارك والمقدّس. وعندما خلق الله آدم، فإنَّه سبحانه وتعالى أراد أن يجعله خليفةً له في الأرض، فقال ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، ولم يكن قد اتخذ أيًا من الملائكة أو الجنّ خليفةً، وإنما اختار الإنسان، أي آدم الإنسان، وهذا يعتبر من كرامة الإنسان وعظمته عند خالقه، فاختاره ليكون خليفته في الأرض، وعلّمه الأسماء كلّها، واحتجَّ به على الملائكة والموجودات والمخلوقات، وبيَّن فضل آدم وجدارته للخلافة. ثم أمر الملائكة بالسجود لآدم – لم يكن سجود عبادة، وإنما سجود تعظيم وتكريم وتقدير لخليفة الله في أرضه، هذا الموجود المكرَّم من الله والمميَّز من عند الله سبحانه وتعالى – ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[2]، إلا هذا الرجل من الجنّ – إبليس – والذي

(1) سورة البقرة، الآية 30.

(2) سورة ص، الآية 73.

هو بالأصل دخيل على الملائكة، أبى واستكبر وتمرَّد، لأنّ في داخله كِبَر وعُجُب وأنانيّة وحسد وعنصرية، وقال لله: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[1]، وكان هذا التمرّد الأوّل. ونتيجةً لذلك، طرد الله سبحانه وتعالى هذا المتمرّد من رحمته ولعنه، فأصبح لعينًا، مطرودًا، رجيمًا، مغضوبًا عليه لعصيانه لربّ العالمين. إلا أنَّ إبليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يمدَّ في عمره إلى يوم يبعثون، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2]، وكان له من الله سبحانه وتعالى ما طلب فمدّ في عمره إلى وقت اليوم المعلوم.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى آدم وزوجه أن يسكنا الجنّة – بغض النظر عن مسألة إن كانت الجنّة في السماء أو في الأرض، لأن ذلك مبحث آخر – محذرًا إياهما بأنَّ إبليس عدو لكما.

وهنا نقطة هامة ينبغي الوقوف عليها، هي أنَّ الله

(1) سورة ص، الآية 76.

(2) سورة ص، الآية 79.

سبحانه وتعالى أعطى للإنسان نقطتا قوة، منذ بداية الخِلقة أي منذ اللحظات الأولى لصراعه مع إبليس، هما: أن عرّفه عدوّه، حيث نبّه تعالى آدم وزوجه، ومن ورائهما كل ذريّة آدم، إلى أن إبليس هو العدو، هذا أوّلًا؛ وأن عرّفه أهداف عدوّه ونواياه، وهذا ثانيًا. وإن لهاتين النقطتين قدرًا كبيرًا من الأهمية، لأن معرفة العدو الحقيقي منذ اللحظات الأولى، والحذر من مغبّة اتباعه، مضافًا إلى تشخيص أهدافه وكشف نواياه، مع وعي صفاته وقدراته، وعدم الاشتباه في كل ذلك، لهو أساس في تحقيق النصر في أي معركة سياسيةً كانت أو عسكريةً أو ثقافيةً أو غير ذلك. وسنقف في الآتي على تفصيل هاتين النقطتين بالاستعانة بالآيات القرآنية.

معرفة العدو وتحديد حقيقة أهدافه

عندما تمرّد إبليس على الإرادة الإلهية والأمر الإلهي، ثم طلب من الله سبحانه وتعالى أن يهبه الحياة إلى يوم يبعثون، فإنه في تلك اللحظة بالذات أعلن هدفه

بوضوح، فبدأ معركته معلنًا هدفه إعلانًا صريحًا. وكما ذكرنا، فإنَّ الله سبحانه وتعالى عندما يحدّثنا في القرآن، فإنه يحدّثنا وينبّهنا ويعلّمنا ويعرّفنا ويهدينا ويرشدنا إلى معرفة عدونا اللدود أوّلًا، ثم إلى معرفة هدف هذا العدو والتبين من غاياته.

فأما فيما خص أصل التعريف بالعدو، فإنَّ الله حذّر في موارد عديدة من القرآن من إبليس، حيث قال سبحانه مخاطبًا الناس: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1]، وقال في مورد آخر: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[2]، وقال في مورد ثالث: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[3]، مضافًا إلى آيات كثيرة يذكر الله سبحانه الشيطان فيها كعدو شرس للإنسان.

فهو عدوّ واضح، بيِّن، مُعلن، صارخ، فلما أنتم غير

---

(1) سورة فاطر، الآية 6.

(2) سورة يوسف، الآية 5.

(3) سورة يس، الآية 60.

آبهين لعداوته، وغير متخذين موقع المواجهة مع هذا العدو؟

أما عن هدف إبليس، فقد كان هدفه المعلن – ولا يزال – الانتقام والثأر من آدم عليه السلام ومن بعده ذريته، على ما فضلهم الله به وحباهم إياه من كرامة الخلافة الإلهية. وقد بدأت القضية بالحسد لآدم، والتكبر عليه بعدم السجود له، ثم تتابعت بالسعي إلى الانتقام منه والأخذ بالثأر. وقد كان لسان حال إبليس مخاطبًا الله عزّ وجلّ: أرأيتك هذا الذي كرّمته عليّ، هذا الذي فضّلته عليّ [آدم]، سأريك ماذا سأفعل به، قال تعالى على لسانه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ - اسمعوا يا وِلد آدم - ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، أي لأستولينَّ وأسيطرن عليهم بالإغواء إن أمهلتني وأعطيتني الفرصة لذلك. وهذا كان واضحًا منذ البدايات.

(1) سورة الإسراء، الآية 62.

وعن النيّة المعلنة لإبليس، يقول الله في مورد آخر: ﴿قَالَ﴾ - أي إبليس - ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[1]، أي سأنصب لهم في الطريق المستقيم الموصل إليك الكمائن كي أمنعهم من الوصول، ولذلك فإن أول قاطع طريق، وأقوى قاطع طريق على العباد السائرين إلى ربهم هو إبليس، ثم يتابع: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾[2]، فإنّه لو تيسّر لإبليس أن يصل بالإنسان إلى الكفر الإيماني والعقائدي، بأن ينكر الإنسان وجود الله، فذلك غاية مرامه، ولكنه في حال العجز عن تحقيق هذه الغاية العليا، فالحد الأدنى بالنسبة إليه هو الوصول بالإنسان إلى مرحلة الكفر بالنعمة، والكفر بالنعم يكون بعصيان الله وإنكار نعمه، وهذا مدلول قول إبليس:﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾، أي لن يكون أكثر بني آدم شاكرين لنعمك، بل سيكونون عاصين لك.

(1) سورة الأعراف، الآية 16.

(2) سورة الأعراف، الآية 17.

ويذكر الله المسألة في مورد ثالث من الكتاب المجيد: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[1].

إذن، فإبليس أعلن حربه على آدم وزوجه وذريّته وولده إلى قيام الساعة، أعلنها حربًا لا هوادة فيها، هو ومن معه ممن يستعين به من جنوده من الجنّ والإنس، المذكورين في القرآن بشياطين الإنس والجن، وأعلن هدفه واضحًا صريحًا بيّنًا، وهو قطع طريق ولد آدم إلى الله سبحانه وتعالى، وإضلالهم، وإغوائهم، وإسقاطهم إيمانيًا، ومسلكيًا، وأخلاقيًا، وإنسانيًا، حتى لا ينعموا في الأرض بالحياة الطيبة الشريفة التي أرادها الله لهم، ويُزجَّ بهم في نار جهنم في الآخرة.

كل هذه الأهداف أوضحها الله سبحانه وبيّنها لبني آدم في كتابه المجيد، ومن قبلهم كان أوضح لأبيهم آدم أهداف عدوّه، فكأنما الله سبحانه قال لآدم: إبليس هذا هو عدوّك، وهذه هي أهدافه، وقد أعطيته فرصةً إلى

(1) سورة الحجر، الآيتان 39 و40.

يوم القيامة، والمعركة مفتوحة بينكما، وإنَّ لكل منكما أسلحته، فأنت تملك الإرادة والعلم والإمكانات، وهو يملك الإرادة والعلم والإمكانات أيضًا. وقد بدأت منذ ذلك الوقت معركة حقيقية واقعًا.

عودٌ لأحداث المواجهة الآدمية الإبليسية

ذكرنا أنَّ الله حدد لآدم أهداف إبليس النهائية، إلا أنه حدد له أيضًا الهدف التفصيلي الأول لأولى معارك إبليس، حيث قال سبحانه لآدم: ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[1]، فأولى عمليات إبليس في حربه مع آدم وبنيه كانت تهدف إلى إخراج آدم وزوجه من الجنة، وقد أوضح الله سبحانه لآدم هدف إبليس وحذره منه، فكأنما قال له: قد أدخلتك يا آدم الجنة لتبقى فيها ما شئت وتأكل فيها رغدًا حيث شئت، وهي بكل ما فيها من النعيم حلال

(1) سورة طه، الآيتان 116 و117.

مباح لك، إلا هذه الشجرة، فلا تقربها، واحذر من إبليس عدوّك لأنه يريد إخراجك من الجنة.

وقد كان المفترض أنَّ الله بتنبيهه آدم إلى هدف عدوه التفصيلي قد أفقد إبليس عنصر المفاجأة، وحقق ما يستدعي من آدم الحيطة والحذر والانتباه الشديد في هذه المواجهة. لكن، وكما نعلم جميعًا، فإنَّ آدم خسر هذه الجولة الأولى في مواجهة إبليس، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[1]، وقال في محلّ آخر: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[2]، وقد ذهب العلماء إلى اعتبار أن تلك المرحلة الأولى كانت مرحلةً تأهيليةً وتدريبيةً لآدم وزوجه.

ونتيجةً لانتصار إبليس عليه – وكما ذكرنا سابقًا، فإنه يصح تسجيل هذه الحادثة كأول انتصار لإبليس في معركته مع آدم وبنيه – كان العقاب خروج آدم من الجنة.

(1) سورة طه، الآية 120.

(2) سورة البقرة، الآية 36.

نعم، بكى آدم وندم وتاب، وقد تاب الله عليه واجتباه، إلا أنَّ تداعيات الخسارة كانت قد تنجّزت، وكبرى تداعياتها القرار الإلهي بأن يهبط كل من آدم وزوجه وإبليس إلى الأرض، ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾[1] ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[2]، لتبدأ المرحلة الجديدة من الصراع والتي ما تزال مستمرةً إلى الآن، وستبقى حتى قيام الساعة.

وبالانتقال إلى مرحلة الصراع الجديدة على الأرض، كان على آدم وزوجه تحمّل تبعات الانتقال، إذ ليس العيش فيها كالعيش في الجنة، حيث يأكل الإنسان ما يشاء رغدًا، بل يقتضي العيش هنا أن يواجه الإنسان مسؤولياته، وأن يعمل ويزرع ويحصد، وأن يواجه الجوع والعطش والأعاصير، وأن يستغل الطبيعة في تلبية احتياجاته، وعليه هنا الالتزام بتكاليف عبادية مضافًا إلى مواجهة إبليس وجنوده، وغير ذلك الكثير. في هذه الأرض، على آدم وبنيه تحمّل المسؤولية، هنا سيعيشون،

(1) سورة البقرة، الآية 38.

(2) سورة الأعراف، الآية 24.

ويموتون، وفي هذه الأرض سيدفنون، ومنها سيُبعثون من جديد في يوم القيامة للحساب.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1]، أي إلى قيام الساعة، وتابع: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ – أي في الأرض - ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[2]، يوم البعث والحساب والقيامة. وقال في مورد آخر واصفًا تتابع المشهد: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3].

وبطبيعة الحال، فآدم وزوجه محصّنان نتيجة مجموعة من العوامل – التي لسنا بصدد التركيز عليها الآن – فأصبح تركيز إبليس في معركته على ولد آدم وذريّته، لأنّ الأرض هي

(1) سورة الأعراف، الآية 24.

(2) سورة الأعراف، الآية 25.

(3) سورة البقرة، الآيتان 38 و39.

أرض الذريّة والتناسل والامتداد البشري. وهنا تأتي أولى الوقائع الواردة في صراع إبليس مع بني آدم على الأرض، وهي حادثة قتل الأخ لأخيه – اللذان حددتهما الروايات بقابيل وهابيل –، وهما ابنان لآدم ذكرهما القرآن دونما تحديد لاسميهما، بل حددهما ب»ابنَي آدم«، قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[1]. فالقصة المعروفة، أنّ هابيل، المؤمن الصالح الطاهر التقي، قدَّم قربانًا إلى الله عزَّ وجلّ – وبغض النظر عن الموضوع الذي قُدِّم القربان لأجله – وقابيل، السيّئ الحسود الأناني المتكبّر، قدَّم قربانًا أيضًا، فتقبَّل الله سبحانه قربان هابيل التقي لأنّه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، فغضب قابيل ولم يسلّم بهذه النتيجة، بل هدَّد أخاه بالقتل، بل ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾[2]، وكان هابيل أول شهيد مظلوم يُقتل ظلمًا وبغيًا.

(1) سورة المائدة، الآية 27.

(2) سورة المائدة، الاية 28.

وعلينا في قراءة هذه الحادثة أن نلحظ مجدّدًا أثر الحسد – مضافًا طبعًا إلى دور إبليس الوسواس – فالحسد كما عرفنا كان سبب ابتداء المعركة في السماء، والحسد هنا كان سبب أولى المعارك على الأرض. لذا، فلا يستخفنَّ أحدٌ بهذه الآفّة الأخلاقية والنفسية الشيطانية القذرة.

وكما رأينا، فقد كان قابيل في هذه الواقعة أول جنديٍّ لإبليس من ولد آدم، قاده غيّه وظلمه في طريق الإجرام والطغيان والإفساد، ونتج عن ذلك فرز معسكرين. وبعبارة أخرى، نتج أوّل انقسام بشري، وأوّل صراع إنساني، وأوّل احتكاك أدى إلى القتل، فظهر في الأرض معسكران، تصارعا وما زالا يتصارعان وإلى قيام الساعة. وهذا عمق الموضوع وجوهره.

أما المعسكر الأول، فهو معسكر آدم وزوجه والصالحين من ذريّتهما، وقادتهم الأنبياء وأتباع الأنبياء، منذ آدم إلى خاتم النبيين. وأما المعسكر الثاني، فهو معسكر إبليس وجنوده من الجنّ والإنس.

خلاصة

عرفنا إذًا أنَّ هناك معسكران ومشروعان تقوم بينهما معركة أبدية، وهنا هو عمق المعركة وجوهرها. وإن لكل من المعسكرين أهدافه التي يصارع في هذه الأرض، وعلى امتداد الأجيال، من أجلها. ولو نظرنا إلى كل تجليات هذا الصراع عبر الأجيال، لوجدنا أنَّ حقيقة المعارك الواقعة بين الناس في كل زمان ما هي إلا نسخٌ متجددة من المعركة الأولى بين آدم وإبليس، فالمعركة لم تكن بين هابيل وقابيل، بل كانت بين هابيل وإبليس، كما لم تكن بين نوح والملأ الأعلى المتكبّرين من قومه، بل كان هؤلاء ألعوبةً في يد إبليس، سلّموا رقابهم وعقولهم وقيادهم له، وكذا معركة إبراهيم، لم تكن بينه وبين نمرود، بل كانت في جوهرها بين إبراهيم وإبليس، وكان نمرود مجرد ألعوبة في يد إبليس، وهكذا بين موسى وفرعون، وبين السيد المسيح وطغاة زمانه، وبين رسول الله محمدٍ وأبي جهل وطغاة قريش، فالمعركة كانت مع إبليس، فأبو جهل يعتبر

مجرد جندي، أو ضابط، أو قائد في جيش إبليس. إلا أنَّ قائد المعسكر الذي يوجّه ويخطّط ويوسوس هو إبليس.

وهذه المعركة مستمرة إلى النهاية بين المعسكرين والمشروعين، معسكر إبليس، الذي يريد للإنسان كفرد، وللبشرية كجماعة، أن تضلَّ وتزيغ وتنحرف وتُنكر الخالق وتكفر بنعمائه وتظلم وتطغى وتنشر الفساد وترتكب الجرائم ويكون لها بؤس الدنيا وعذاب الآخرة، فهذه حقيقة مشروعهم بالكامل، وهذا كل ما كان يحدث من يوم قابيل إلى هذا الجيل؛ وفي المقابل، معسكر الأنبياء وأتباع الأنبياء، الذي يريد للإنسان كفرد، وللبشرية كجماعة، أن يكونوا مؤمنين بربهم، عارفين له، شاكرين لنعمائه، مطيعين لأوامره، عابدين له في أرضه، لتكون لهم الحياة الطيبة الشريفة الكريمة في الدنيا، وليكون لهم النعيم الخالد في الآخرة.

فهذه أهداف كل من المعسكرين على حدة، وكل ما يحدث في المعركة هو تطبيق ومصداق وتجلٍ وتجسّد لعنوان عام هو السعي لتحقيق كل من المعسكرين

لأهدافه، من جيل إلى جيل ومن زمن إلى زمن، فجوهر المعركة وحقيقة المعركة ثابتة وواضحة وواحدة، وهي تلك التي بدأت منذ أن أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم.

إذًا فخلاصة الكلام في هذه المرحلة هو تشخيص جوهر المعركة وحقيقتها، وتشخيص ميدان المعركة أيضًا، فميدانها هو الإنسان، الإنسان الفرد، والإنسان الجماعة. والقتال بين المعسكرين ميدانه الناس، فالأنبياء يريدون لهم العبودية الحقّة لربّ الأرباب وخير الدنيا والآخرة والسعادة في الدنيا والآخرة، وإبليس يريد لهم جهنم والشقاء، وارتكاب الجرائم والإفساد والظلم والطغيان والفتنة والضلال والانحراف. إذًا، فساحة القتال هي ساحة الناس، وميدان المعركة هو الإنسان.

المرحلة الثانية: معركة وجود الإنسان

بعد معرفة العدو وتحديد أهدافه، وهو ما أشرنا إليه في المرحلة الأولى، على الإنسان في المرحلة الثانية أن يتعرّف إلى إمكانات العدو وقدراته، أساليبه ووسائله وتكتيكاته، نقاط ضعفه وقوته، قدرته على الصمود، وغيرها من الاعتبارات، وفي المقابل على الإنسان أن يعرف إمكاناته وقدراته [هو أيضاً]، ونقاط ضعفه وقوته، وعيوبه وثغراته، ومناعة حصونه وإمكانية تسلل العدو إليها، وهذا جزء أساسي في أي مواجهة.

فمن شروط كل معركة، مهما كانت طبيعتها، أن تعرف العدو وإمكاناته وخططه وأن تعرف نفسك أو جبهتك وإمكاناتها. لأن الذي يسعى إلى خوض معركة دون معرفة إمكانات عدوّه، ولا معرفة خططه وظروفه، مضافًا إلى

عدم معرفة إمكاناته هو، كعدد عسكره، وكمية ذخيرته وسلاحه، وفترة صموده، وإمكانية صمود الناس معه، فهو حتمًا يسعى إلى الضياع.

وكذلك الحال في هذه المعركة الكبرى بين المعسكرين المذكورين، فبما أنَّ الإنسان يخوض المعركة بكل وجوده، ويواجه فيها عدوًا لدودًا، فإنَّ عليه أن يعرف مقدّرات عدوّه. فإبليس لديه إمكانات كبيرة وكثيرة كما أنَّ للإنسان إمكانات، ولولا أن الله أعطى للإنسان الإمكانات والقدرة على إلحاق الهزيمة بإبليس وجنوده وإفشال مشروعهم، لما كان طلب منه أن يواجههم ويُلحق الهزيمة بهم، وأن لا يستسلم لهم ولا يُسلِّم لهم عقله وقلبه ودينه ونفسه.

فابنة التسع سنوات مطلوبٌ منها تأدية واجبها في هذه المعركة عند بلوغها سنّ التكليف، وابن الخامسة عشرة مطلوب منه ذلك أيضًا في هذه المعركة. فهل يجعل الله شابًا صغيرًا وطفلةً صغيرة مقابل إبليس دونما تزويدهم بالقدرة على هزيمته؟ والجواب سالب قطعًا، حيث إنَّ الشاب الصغير والطفلة الصغيرة – فضلًا عن

الرجال والنساء – بإمكانهم إلحاق الهزيمة بإبليس وبكل مشروعه ولكن بشرطها وشروطها.

وبناءً على ما مر من ضرورة معرفة إمكانات العدو، نقف في الآتي على مقدرات إبليس وإمكاناته في هذه المعركة.

إبليس وإمكاناته

في خصوص إمكانات إبليس فإن النقطة الأولى التي نشير إليها هي علم إبليس، حيث إنَّ إبليس – عدو الإنسان – يعتبر على مستوًى عالٍ من العلم، فإبليس – بحسب بعض الروايات – عبد الله مع الملائكة آلاف السنين قبل خلق آدم، ولذلك فهو شهد الملائكة، وملكوت السماوات والأرض، ورأى الجنة، وشهد خلق آدم، مضافًا إلى كل ما جرى بعد خلق آدم وحتى يومنا هذا. وبطبيعة الحال، من الطبيعي لشخص عاش آلاف السنين وما يزال حيًا أن يملك تراكمًا معرفيًا كبيرًا وتجربةً وخبرةً هائلين.

مضافًا إلى ذلك فإن إبليس يعتبر من أعظم الخبراء في أساليب وتقنيات الحرب النفسية، وهذه سمة متفرعة عن السمة الأولى، فعلم إبليس الواسع بالإنسان الذي شهد خلقه وتجربته الطويلة عبر الأزمان مع الأمم السابقة وخبرته الكبيرة بصنوف الناس ومواكبته لكل المراحل التاريخية، كل ذلك يجعل منه عارفًا خبيرًا بالنفس البشرية، ومن كان هذا حاله فإنه سيكون بالتالي خبيرًا بأساليب الحروب النفسية.

فالإنسان كإنسان – رجلًا كان أو امرأةً – ينزع بطبيعته نحو جملة من الأمور وينفر من أخرى، فيحب الإنسان المال، مثلًا، كما ويحب السلطة والزعامة، كما وحُسن الثناء والمديح، وينزع بطبيعته نحو كل ما هو بنظره جميل، فيرغب بعيش الدعة والهناءة، فلو تسنى له العيش دون تعب وضنك وتضحية فإن ذلك مطلوب له، ولو واتته فرصة نيل كل مراداته لفرح بذلك، وبالتالي فللإنسان حاجات جسدية واجتماعية ونفسية وغير ذلك؛ وإبليس – وهنا محل الشاهد – يعلم بكل تلك الاحتياجات،

ويعلم أنّ للأعم من بني الإنسان نقاط ضعف، وخاصة عند توافر الأرضية المطلوبة لتجلي نقاط الضعف هذه كاتصاف الإنسان بالحسد أو الغضب أو غير ذلك من الرذائل.

ومع علمه التفصيلي بالنفس البشرية وشؤونها، فإن إبليس يقوم على الـدوام بعملية كشف استطلاعي، ويكوّن لكل فرد من بني البشر ملفًا خاصًا يسجّل فيه كل نقاط ضعفه التي يمكن له الانقضاض عليه إذا انطلق منها.

وهـنـا أنـبّـه نفسي وجـميع الـمؤمـنـين، إلـى ضـرورة الاستحضار الدائم لإمكانات إبليس هذه، لأنّ معركتنا معه هي على مدار الساعة والدقيقة والثانية، بل وعلى مدار كل نفس بشرية، معركة دائمة ومستمرة، تبدأ من سن التكليف لغاية خروج الروح من الجسد.

وفي الخلاصة، فإمكانات عدونا تندرج، إذًا، ضمن عنوانَين: أولهما امتلاكه الإمكانات المعلوماتية الهائلة والإحاطة بكل ما يتعلق بنا من ظروف وأحوال؛ وثانيهما

خبرته بالنفس البشرية، بمعنى كيفية التعاطي مع كل إنسان، بحيث يخاطب كل شخص باللغة التي يفهمها ويحبها وكلٌّ حسب حاجته.

وهو يستفيد من هذه الإمكانات ليتسلل إلى داخل كل واحد منا سعيًا للسيطرة عليه، على عقله، وقلبه، وإرادته، وقراره، وسلوكه.

ولكن، وهذا هو الأهم، ما هي حقيقة قدرة إبليس وواقعها؟

هنا نقول، إنَّ إبليس، وبغض النظر عن كل ما سبق ذكره، مخلوق ضعيف، قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1]. وإن كان هذا حاله، فما هو عامل قوته الحقيقي؟ وهل الله أعطاه ولايةً تكوينيةً وسلطةً على الموجودات؟

والجواب هو النفي، فالله لم يعطِه ولايةً كهذه، بل هو مخلوق ضعيف لا يملك سوى التزيين والوسوسة،

---

(1) سورة النساء، الآية 76.

فيزيّن الشيء الحقير التافه ويقدّمه كأجمل ما يكون. وفي هذا الصدد، فإنَّه يستفيد من معرفته وخبرته بالقوانين، والشرائع، والأديان، والمذاهب، فيأتي للفقيه كفقيه، وللمتديّن كمتديّن، ولتاجر المخدرات كتاجر مخدرات، وللمجرم كشخصية مجرم، لدرايته بنقاط ضعف كل صنف من هذه الأصناف، كما أنَّه يستند كثيرًا على علمه بالمخارج الفقهية والشرعية والقانونية، وعلى الحيل والخدع والأكاذيب.

نعم، هو قادر على تزيين كل شيء، وقد تجلى ذلك على مر الأزمنة المتعاقبة، ومن أمثلته إغواء الناس ودفعهم لعبادة الأصنام، فكيف يمكن لعاقل أن يعبد حجرًا؟ والأقوام السابقة كلهم يعلمون حتمًا أنَّ الصنم مجرد حجر، لكنه وسوس إليهم بأنَّ هذا الصنم إنما هو جسم حجري يرمز إلى الله، وأنتم إنما تعبدون الله لا الصنم، فوجدوها فكرةً معقولةً سائغة، ومع مرور الوقت تحوّلوا لعبادة الصنم كإله. فإبليس يسير بالتدرّج، ويعتمد العمل المرحلي، ويستفيد من إمكاناته في عملية الوسوسة.

إذًا، فإبليس إنما يزيّن ويمنّي ويَعِد ويسوّل ويسوّف ويُنسي، وهذه هي حقيقة قدراته.

وبالعودة إلى أصل القصة، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[1]، أي أنَّه عندما أخرجهما من الجنة، لم يخرجهما بقوة تكوينية أجبرهما بها على شيء، ولم يهددهما بسلاح، ولم يغرهما بالمال، بل أخرجهما بمجرد عملية خداع صدّقها آدم، وتلخّص عمله بالوسوسة لآدم.

المطلوب منّا

إذًا، بان لنا أنَّ إبليس ليس له على الناس سلطان، وعلى غرار ما قد يبرّر بعض الناس لنفسه ضعفه أمامه بالقول إنَّ الله سلّط علينا إبليس والشياطين ولا قدرة لنا على مواجهته، فإبليس لا سلطان له إلا على من يسمح له بذلك، ويفتح له سمعه وقلبه ليصير له ولمشروعه خادمًا مطيعًا. فعلى الإنسان أن يدرك حدود قدرات إبليس وأن يكون لسان حاله: أنا عبدٌ لله لا لإبليس، وأنا إنسان ولي

(1) سورة الأعراف، الآية 20

كرامتي، وأنا ابن آدم الذي أمر الله إبليس يومًا بالسجود له، سجود تعظيم وتكريم، فكيف يصح مني أن أصبح عبدًا له خاضعًا تابعًا لأوامره؟

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1] – بمعنى أنَّ من يتّبع إبليس فإنَّه يضع نفسه بسبب اتباعه هذا تحت سلطان إبليس؛ فمن أراد أن يكون عبدًا لله وحده فله ذلك، بشرط عدم اتّباع إبليس وغواياته.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[2].

وفي آية ثالثة: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا

(1) سورة الحجر، الآية 42.

(2) سورة النحل، الآيات 98 إلى 100.

تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَاْ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾(1).

ونختم هذا الفصل بالأسئلة التالية:

هـل نستطيع أن نـواجـه إبليس الـذي يملك هـذه الإمكانات؟

ما هي المقدّرات التي أعطانا الله سبحانه وتعالى إياها ليحمّلنا مسؤولية هذه المواجهة وليطلب منّا أن ننتصر في هذه المواجهة؟ إذ في بعض المعارك يُطلب منا القتال فقط، ويكون النصر نتيجةً لا تُطلب بذاتها منا، أما في المعركة مع إبليس فالمطلوب هو النصر لا مجرد القتال، والمطلوب إلحاق الهزيمة بإبليس.

فما هي مقدرات إلحاق الهزيمة بإبليس؟

هذا ما سنجيب عليه في الفصل الثالث إن شاء الله.

(1) سورة إبراهيم، الآية 22.

الفصل الثالث

في طبيعة النشاط الإبليسي
وسُبُل ومقدّرات مواجهته

سنواصل في هذا الفصل البحث من حيث انتهينا في ختام الفصل السابق. ولكن، وقبل الخوض في ذلك، نقف عند مسألة هامة تنبغي الإشارة إليها تتعلق بقصة آدم وإبليس التي استند إليها بحثنا في الفصل السابق.

آدم وحوّاء...من يتحمّل المسؤوليّة؟

لقد كان غرضنا من تناول تلك القصة الاستفادة منها في تحديد جوهر الصراع القائم بين الإنسان وعدوه إبليس، الصراع الذي بدأ منذ ذلك الحين؛ إلا أنَّ في هذه القصة وفي الأحداث الأولى التي تناولناها من التفاصيل والعِبَر والدروس ومن الأسئلة ما يحتاج إلى أبحاث طويلة لم تكن هي مقصودنا من الطرح. فمن الأسئلة التي تنقدح عند الوقوف على هذه القصة، مثلًا: أنَ الجنة التي كان آدم وزوجه فيها ثم أُخرجا منها، هل هي في السماء أم في الأرض؟ وإذا كانت في السماء فهل هي الجنة النهائية التي سيحشر المؤمنون إليها أم أنها جنة مخصوصة أخرى؟ وكم كانت مدة بقائهما في الجنة قبل خروجهما منها؟ وما هي الشجرة التي نهى الله سبحانه وتعالى آدم عن الأكل

منها أو حتى الاقتراب منها؟ وما هي تفاصيل حركة إبليس في تلك الحادثة؟ أسئلة كثيرة تُطرح عادةً يمكن لمن أراد التوسّع الاطلاع على إجاباتها، وعلى الأبحاث المتعلقة بهذه الحادثة، في كتب التفسير والعقيدة، وكتب قصص الأنبياء.

وبمعزل عن كل ذلك، ومن خارج سياق المعركة الأساسية التي هي موضوع بحثنا في هذه الفصول، فهناك نقطة متعلقة بهذا البحث بودي أن الفت إليها من باب تصحيح مفهوم شائع في الثقافة الشعبية، حيث يشيع بين العوام فهم خاطئ يتهم السيدة حواء عليها السلام زوجة نبي الله آدم عليه السلام بأنها هي التي دفعت آدم إلى الأكل من تلك الشجرة، وبالتالي فهي التي تتحمل كامل المسؤولية عما حصل في بداية هذا الصراع، فالناس في هذا السياق يتهمون أمهم بأنها هي سبب الخطيئة.

ثم إن هذا الفهم السائد يعود إلى عصور قديمة، سابقة على عهد رسول الله، نشأت عند أقوام بني إسرائيل وتفشّت بين المسلمين نتيجة ترويج يهود شبه

الجزيرة العربية لها، وبذلك دخل هذا الفهم إلى ثقافة بعض المسلمين.

لكن الواقع أنَّ أمرًا كهذا لا أساس له من الصحة بحسب الثقافة الإسلامية الصحيحة، حيث إن النصوص القرآنية المتعلقة بقصة آدم وحواء لا تشير أبدًا إلى شيء من هذا القبيل، وتكفينا وقفة سريعة على النصوص لنتثبّت من ذلك. يقول الله سبحانه فيما يتعلق بهذه النقطة: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[1]، فإبليس بحسب النص الصريح لم يوسوس لحواء بل لآدم، وكان آدم هو من تركّز جهد إبليس عليه، وهو مورد خطاب إبليس الإغوائي. نعم، قد يُستفاد من آيات أخرى أن آدم وحواء كانا معًا مورد الوسواس الإبليسي، وأن بهما معًا تعلّق خطاب إبليس التضليلي، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[2]، وقال سبحانه وتعالى يحكي عن عتابه سبحانه لهما

(1) سورة طه، الآية 120.

(2) سورة الأعراف، الآية 20.

معًا: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[1]، وقال في محل ثالث: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾[2]، إلا أن غاية ما يفيده ذلك كله أن أمر العصيان إنما يعود إلى مسؤولية مشتركة، حيث كان لآدم حريته وقراره واستقلاله ولحواء أيضًا حريتها وقرارها وإرادتها المستقلة، ولكنهما أخذا القرار معًا، فأقدما على عمل مشترك بقرار مشترك، ومعنى ذلك أنّا إن أردنا التوفيق بين النصوص الواردة في السياق القرآني حول المسألة، فإننا نفهم أنَّ المسؤولية في هذا الأمر كانت مشتركةً بين آدم وحواء، بل قد يُفهم أنَّ مسؤولية آدم في هذا الخصوص كانت أكبر.

وبكلّ الأحوال، فليس المراد تحميل آدم المسؤولية، بل الهدف أن نُخرج من أذهان البعض هذه الثقافة

(1) سورة الأعراف، الآية 22.

(2) سورة البقرة، اللآية 36.

الخاطئة التي تُحمّل أمّنا حواء مسؤولية إخراج أبينا آدم من الجنّة، وبالتالي تُحمّل المرأة عمومًا مسؤولية أي فساد في الأرض.

إبليس، الخطاب والمقدّرات

بالعودة إلى سياق بحثنا، وصلنا – في الفصل الثاني – إلى أنَّ هدف إبليس هو إضلال الناس وإغواؤهم في سبيل قطع الطريق بينهم وبين الله عزّ وجلّ، وأنّه ليس له سلطانٌ على العباد إلا إذا هم اتّبعوه وأطاعوه واستجابوا له وسلّطوه على أنفسهم. وهذه فكرة يجب التأكيد عليها وإيضاحها، ولذلك سأعيد التذكير بقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ – حيث إنَّه سبحانه نبّهكم إلى أنَّ مصير الدنيا والآخرة إن أطعتموني سيكون كذا وإن عصيتموني سيكون كذا – ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي

كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وقلنا إنّه برغم امتلاك إبليس لعوامل العلم والمعرفة والخبرة والتجربة والكمّ الهائل من الوسائل والأساليب والتكتيكات المطلوبة كلها لتحقيق غايته في الإضلال والإغواء، إلا أنَّ قدرته الأساسية التي يستند إليها عمله هي الوسوسة والتزيين والتسويل والوعد والتمنّي والإملاء والخداع والكذب، ومن دون هذه القدرة فإنَّ كل تلك العوامل لا فاعلية لها، كما أنَّ هذه القدرة لا تكون ذات قيمة إلا إذا تأثر الإنسان بها وتفاعل معها، ومن هنا أكّدنا على أنَّه لا ينبغي لأحد أن يبرر لنفسه الوقوع بين يدي إبليس أو الهزيمة أمام إبليس أو الاستسلام لإبليس وجنوده وشياطينه بأنَّ لإبليس طاقات هائلة وإعجازية.

إذًا، فمورد عمل إبليس الأول الذي يستهدفه كيما يحقق أهدافه في هذه المعركة هو نحن، أفراد الإنسان،

(1) سورة إبراهيم، الآية 22.

فيعمل على كلٍ واحد منا كفرد، في سعي للسيطرة على نفسه وعقله وقلبه وإرادته، ليصير تابعًا متولّيًا له، بل عبدًا مطيعًا له، وهذه الأدبيات مذكورة في الآيات القرآنية.

العوامل المساعدة لإبليس

عرفنا مما سبق أنَّ إبليس يحوز مجموعةً من المقدرات والوسائل التي يستند إليها في حربه مع بني آدم، إلا أن هناك مضافًا إليها عوامل مساعدة لإبليس في معركته مع الإنسان هي في الواقع جزء لا ينفك عن الإنسان، وهذا أمر على درجة من الخطورة. ولو كنّا سنقرّب الحالة بتمثيلها بالحروب العسكرية، فهي أشبه ما تكون بحالة جيش يريد مهاجمة مدينة، أو حصن، أو قلعة، ويعتمد في هجومه على أشخاص يعينونه من داخل القلعة، ويوفرون له المعلومات، ويمدّونه بنقاط الضعف، ويفتحون له الأبواب الخلفية ليتسلل منها، فهذا أمر خطير كما لا يخفى. على أنَّ القلعة لو كانت محصّنةً جيدًا ولم يكن للعملاء وجود ضمن حدود حصنها فإنَّ المشهد كان سيختلف.

وفيما خص معركة الإنسان مع إبليس، فإنَّ هناك – مع الأسف – عامل مساعد لإبليس هو في داخل الإنسان، وهو ما يسمى في الأدبيات الإسلامية بـ«النفس الأمّارة بالسوء». حيث إنَّ في داخل كل واحد – بحسب الخلقة والجبلّة الإلهيّة التي جُبلنا عليها – نفسًا أمّارةً بالسوء، حيث إنَّ الله سبحانه حين خلقنا فإنَّه أوجد فينا مجموعةً من الشهوات والغرائز والحاجات، وهي موجودة عند كل إنسان بشكل فطري وطبيعي، ولولا وجود هذه الشهوات والحاجات والغرائز لما كان اندفع الإنسان دفعًا تكوينيًا نحو الأكل، لغياب غريزة حب الأكل، ولما كان اندفع نحو الدفاع عن نفسه، لغياب غريزة حب البقاء، ولما كانت استمرت السلالة البشرية، لغياب الغريزة الجنسية التناسلية، إلى غير ذلك من النتائج.

إذًا، فهنالك شهوات أودعها الله في الإنسان بهدف تحقيق خير الإنسان ومنفعته لا إيقاعه في الضرر، حيث تضمن له حياة النعيم، وسعادة الدنيا والآخرة، إلا أنَّ هذه الشهوات والحاجات كما يمكن أن تكون مفتاحًا للخيرات

والسعادات، فإنَّ بالإمكان أن تكون مفتاحًا للشرور والويلات، مثلها في ذلك مثل معظم مقدرات الإنسان، كالعلم مثلًا، ولنأخذ علم الفيزياء تحديدًا، فيمكن الاستفادة منه في تحقيق خير الإنسان عبر الاستفادة من علومه في تطوير الاستفادة من الطاقة الذرية، وتطوير التقنيات الطبية، ومواجهة بعض المشاكل المناخية، كما ويمكن استخدامها في قتل الإنسان؛ وكمثل النار مثلًا، التي يمكن استخدامها في الطهو كما يمكن استخدامها في إحراق الأشخاص والبيوت؛ وكمثل السلاح الذي يمكن الاستفادة منه للدفاع عن المظلومين كما ويمكن استخدامه في قتل المظلومين والأبرياء. فكما أنَّ هذه المقدرات متعدّدة أوجه الاستعمال وتختلف استعمالاتها بحسب غايات المُستخدِم، فكذلك الشهوات المودعة في الإنسان.

في ظل هذا الواقع يأتي دور إبليس، فهو يستغل الشهوات الموجودة عند الإنسان، كحبّ الطعام، وحب البقاء – وهو مغاير لحب الحياة، حيث يعم حب البقاء

العيش ولو بذل وخنوع، كمثل ما حدث في كربلاء حيث خاف القوم على أنفسهم وأولادهم فتآمروا وارتكبوا أفظع جريمة في التاريخ –، وغيرها من الغرائز المتنوعة والمختلفة، يستغلها إبليس فتعينه وتساعده وتهيّئ له الأرضية وتمكّن له وتفتح له الأبواب والنوافذ، ويصبح الإنسان هنا أمام تحالف. فكل فرد منّا يواجه في هذه المعركة، وعلى مدار الساعة، تحالفًا بين طرفين، الأول هو إبليس وشياطينه، والثاني هو النفس الأمّارة بالسوء والشهوات، الذين يتحالفون ويتآمرون علينا فيأخذوننا إلى مسار غير المسار الذي يريده الله سبحانه وتعالى لنا.

وفي هذا السياق فإنَّ القرآن الكريم، كما النبيِّ وأهل البيت عليهم السلام في الكثير من الروايات، تحدثوا عن عبادة الشيطان، واتّباع الشيطان، وإطاعة الشيطان، وتولّي الشيطان من جهة، وتحدثوا من جهة أخرى عن اتّباع الهوى الذي هو النفس الأمّارة بالسوء والشهوات، فالتحذير من هذين المسلكين وارد بكثرة في أدبياتنا الإسلامية.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1]، واتخاذ الهوى إلهًا من دون الله، تدليل صريح على ما ذكرنا من إطاعة الهوى واتّباع الشهوات، وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾[2]، وعندما يتّبع الإنسان نفسه الأمّارة بالسوء، ويتّبع هواه، ويتبع شهواته، ويعطّل عقله، ويسلّم رقبته لرغباته ونزواته، فإنَّه يصير أسيرًا في حبائل الشيطان.

وفي هذا السياق من التحذير من هذين الحليفين، ما نجده في الأدعية الشريفة، من الطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعيننا على أنفسنا وعلى شيطاننا.

وعند اتضاح هذا المعنى، يتضح معنى ما ورد في بعض الروايات: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»، فليس المقصود معنى النفس مطلقًا، بل المقصود الجانب الأمّار بالسوء فيها، الذي يدعو إلى الشهوات خارج الضوابط الشرعية.

---

(1) سورة الفرقان، الآية 43.

(2) سورة الروم، الآية 29.

بعد أن أوضحنا طبيعة دور إبليس واستناده إلى نفس الإنسان الأمارة بالسوء، من الجيد تقديم محاولة تدليل على الفكرة المطروحة من خلال الوقوف على بعض الوقائع الخارجية التي نعايشها يوميًا.

مؤشرات واقعية على طبيعة عمل إبليس

على الرغم من أنَّ الله سبحانه وتعالى حدّثنا في كتابه المجيد عن إبليس وجنوده من الجن، كما وحدثنا عنه الأنبياء بل ورد عن بعضهم أنهم شاهدوه وحادثوه، إلا أننا لا يمكن لنا رؤية إبليس بالعين، ولا سماعه بالأذن، وكذا جنوده من الجنّ فإننا لا نراهم، ومن هنا فإنَّ لنا أن نسأل – وبالرغم من أنَّ الله والأنبياء حدّثونا عنهم، وبمعزل عن التصديق الإيماني والتعبّدي – ما هو المعطى الحسيّ الذي يمكن الركون إليه لاستشعار وجود إبليس استشعارًا حسيًّا؟ أي ما هو المعطى الذي يسمح بملامسة موضوع إبليس حسيًّا؟

والجواب على هذا السؤال يكون انطلاقًا من لحاظ التجربة التي يعيشها كل فرد منّا، حيث إننا ما نزال جميعًا

في قلب المعركة مع إبليس ومع النفس الأمّارة بالسوء.
فنقول إنَّ من المؤشرات الحسية التي يعيشها كل منّا ما نسميه في العرف بحديث النفس، حيث يمر كل منّا بحالات وأوقات يشعر فيها أنَّه يحدّث نفسه، فواقع هذه المسألة أنَّ الحديث القائم هو خليط من وساوس إبليس وتزييناته مع النفس. فما نعتقده نحن حديثًا مع أنفسنا هو في الحقيقة حديث مع إبليس، بل حوار وجدل وصراع معه، محلّه بحسب التعبير القرآني صدر الإنسان، حيث يقول الله في سورة الناس: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[1]، وليس المراد بالعبارة هنا بالضرورة منطقة الصدر، ولكنَّه تعبير عن النفس البشرية، فالشيطان يدخل إلى نفس الإنسان كما يجري الدم في عروقه، فكما أنَّ أحدنا لا يشعر بجريان الدم في عروقه، ولكن يتيقن من ذلك بدليل بقائه حيًا وبقاء قدرته على تحريك يديه، وبقاء وعيه، أي هو يجزم بجريان الدم

(1) سورة الناس، الآيتان 4 و5.

في عروقه من لحاظ نتائج وآثار جريان الدم، نقول كما أننا نتيقن من جريان الدم دون الشعور به من لحاظ آثاره فإنَّ علينا أن نتيقن من وجود إبليس بملاحظة آثار وجوده، التي هي أحاديث النفس بالوسوسة والغواية، التي ليست في واقعها إلا أحاديثًا لإبليس.

ولعل من المفيد التدليل على هذه الفكرة بذكر بعض الأمثلة والنماذج. ومن هذه الأمثلة، حال بعض المؤمنين في فصل الشتاء وأيام البرد، عند طلوع الفجر وحلول وقت الصلاة الواجبة، حيث يأتي إبليس ليوسوس للإنسان محاولًا منعه عن القيام للصلاة، فكأن لسان حال إبليس: فلتبقى نائمًا ناعمًا بالدفء، فلا خطر إن لم تصلّ الفجر اليوم، بل إنَّ قيامك سيمنعك عن الاستيقاظ بنشاط لعملك، ثم إنَّ بإمكانك أن تصلي الفجر قضاءً مع الظهرين. فلو قال العبد: كيف أترك الصلاة وهي على قدر من الأهمية وسيحاسبنا الله عليها، فإنَّه سيقول: الله غفور رحيم والله يتوب على عباده، أوليس في الحديث الشريف أنَّ الله يحب الشاب التائب والعبد التائب،

وأنت ما تزال شابًا وبإمكانك أن تتوب؟ هذا حوار مر ويمر به كل منّا في أوقات صلاة الفجر، فكم من شخص أصغى إلى كلام إبليس ونام تاركًا صلاة الصبح. فهذا من شواهد وسوسة الشيطان لنفس الإنسان.

ومن الأمثلة أيضًا، أنَّ من فوّت صلاة الفجر وعزم على قضائها في النهار، فإنَّه يسمع في داخله صوتًا يحدثه بأنك لا تملك الوقت الكافي والناس وأعمالك في انتظار، فالأهون أن تصلي الظهر والعصر وتُرجئ قضاء الصبح إلى وقت لاحق أو يوم آخر، فيذهب قضاء الصبح ويبدأ التراكم. وهذا مثل على أمر نعيشه كلنا أيضًا.

ومن الأمثلة أيضًا ما يعايشه الشباب، ومن الضروري التركيز على الشباب وإن كان الخوف على الشيب أكبر، حيث إنَّ إبليس ما يفتأ يغويهم بخطابه: ما زلت في بداية شبابك، أعليك أن تقضي شبابك بالصلاة والصوم والجهاد والقتال والشهادة، لما الاستعجال؟ أنت الآن ابن خمس عشرة سنةً فانتظر حتى يصبح عمرك خمسًا وعشرين سنةً، لما لا تفرح وتمرح وتستغل شبابك في

فعل ما يحلو لك، ثم اسعَ بعد حوالي العشر سنوات إلى ترتيب أمورك والتوبة لله والالتحاق بصفوف المجاهدين وعبادة الله واستغلال كل الفرص المتاحة. فالبعض يصغي والبعض الآخر لا يصغي.

ومن الأمثلة ما قد يجده الواحد منا في نفسه عندما يكون أمامه مبلغ مالي ضخم، قد يكون المبلغ عائدًا لشركة أو مؤسسة يعمل فيها أو لتنظيم ينتمي إليه ولا فرق، ويكون هو محتاجًا ماليًا، فتسوّل له نفسه وهو في الغرفة وحيدًا أن يمد يده ويأخذ جزءًا من المبلغ، ولسان الحال: ما الضرر الذي سيلحق بالمؤسسة لو أخذت لنفسك مبلغًا لا يزيد على الألف دولار لتفرّج به عن نفسك؟ ثم إنك لا تأخذ المبلغ بنية السرقة، بل اعتبرهم دينًا واكتب على ورقة صغيرة بأنَّ للمؤسسة عليك دينٌ مبلغ كذا، ثم تقوم لاحقًا بردّهم عندما تتيسر أمورك دونما علم من أحد. فيأخذهم بعنوان الدين، ولا يعتبر نفسه سارقًا أصلًا. ثم بعد ذلك يسوّف ويسوّف ردهم بحجة أنَّ القاعدة الشرعية تقول «فإن كان ذو عسرة فنظرة

إلى ميسرة»، فتسوّل له نفسه: أنت معسور الحال وليس بإمكانك ردهم فأرجئ ردّهم إلى وقت لاحق. فيستحيل الدين سرقةً.

ولعل القارئ التفت إزاء كلامي وتنبّه إلى أنَّ بعضًا مما أوردته عليه من الوقائع يشكّل حالات مرّ بها أو عايشها يومًا، بل ما تزال هذه الوقائع تحصل في كل يوم وكل ساعة.

فكل ما أوردناه وغيره مما يشابهه من حديث النفس يعتبر في الواقع تسويفًا من إبليس، وإملاءً وإغواءً وإضلالًا وتزيينًا منه.

ومن الشواهد المفيدة في المقام إنسان يتحلّى بروح جهادية عالية، يستعد معها للتضحية بأي شيء في سبيل الله، فيأتيه إبليس قائلًا: هل ينبغي أن يقوم مستقبل البشرية وصلاح الأمّة على تضحياتك، فلماذا لا يضحي فلان وفلان، ألا يكفي ما قدمتَه من تضحيات حتى تنوي إرسال أولادك للجهاد والتضحية؟ لماذا لا يرسل فلان أولاده للتضحية؟ فقد يؤثر كلامه هذا في روح الإنسان

الجهادية، فيقنع بكلام إبليس فيبعد أولاده عن سوح الجهاد، وكذا يوسوس إبليس لغيره فيفعل غيره كمثل فعله.

وهذا ما حدث في كربلاء، كلٌّ اعتبر أنَّه إن هو أبعد أولاده وإخوته وذويه عن محاربة جيش ابن زياد فإن شيئًا في معادلة الصراع لن يتبدل. كان مع مسلم بن عقيل خمسة عشر ألف محارب، فإن انسحب ثلاثة فلن يؤثر ذلك شيئًا، ولكن الحال أن الثلاثة تبعتها ثلاثة ثم ثلاثة أخرى، وهكذا إلى أن بقي وحيدًا لا ناصر له ولا معين.

نقاط قوّة الخطاب الإبليسي

يتميز الجهد الإبليسي التضليلي بجملة من الخصائص التي تعطي لإبليس قوةً في نفوس الناس نذكر في التالي أهمها:

1. منطقية الخطاب: قد بان لنا مما مر من الأمثلة أنَّ إبليس إنما يخاطبنا بكلام ظاهره أنَّه كلام منطقي عقلائي، فهو يبني خطابه على تراتبية منطقية مقنعة.

2. تزيين الخطاب: حيث إنَّـه يبث وساوسه في القلوب بعد تزيينه وإكسائه أحلى حلة لفظيَّة بحيث يطيب للنفس تلقفها والاقتناع بها، فيهوّن علينا أمر المعصية ويلطّفها ويزيّنها ويقنعنا بأنها لن تدخلنا نار جهنم، وضمانته لنا أنَّ الله يوم القيامة سيغفر لنا ويرحمنا. بل إنَّه يلجأ في بعض الأحيان إلى الاستناد إلى آيات قرآنية لتضليل الإنسان.

3. الاستناد إلى مشهورات باطلة: وقد يساهم في قوة خطاب إبليس استناده إلى بعض القناعات الزائفة المشهورة بين الناس[1] في سبيل تسهيل شأن المعصية عندهم، كالفكرة السائدة أنَّ طيّب القلب يسامحه الله مهما ارتكب لطيبة قلبه، فينطلق إبليس من هذه المقدمة ليقنع بعض العاصين، من جهة، بأنَّه لا تثريب عليه إن هو ارتكب معصيةً من الصغائر فهذا سهل عند الله

(1) تنبغي الإشارة إلى أن شياع هذه القناعات الزائفة بين الناس قد يكون أيضًا بفعل من إبليس، فالتفت.

ما لم تكن قاسي القلب أو سيئ الطبع، ويقنع الناس، من جهة أخرى، بتعذير طيب القلب على أي معصية يرتكب، سرق لكنه طيب القلب، وقتل لكنه طيب القلب؛ وفي ظنهم أنَّ طيبة قلبه ستكون مانعًا عن أن يحاسبه الله سبحانه، ما يساهم في نشر المعصية وبث الفساد في الأرض.

4. استغلال الفرص ونقاط الضعف: فإبليس في سياق عمله يستغل أي فرصة تساعده في تضليلنا، أو أي نقطة ضعف يجدها لدى أحدنا، وقد ورد في بعض الروايات تعبير «فرص الشيطان»، حيث إنَّ هناك جملة مواصفات للإنسان، أو أوضاع يعيشها الإنسان، يفاد منها إبليس أيّما إفادة في سبيل تسهيل مهمته. وكذلك ورد في الروايات تعبير «حبائل إبليس»، وهي تعبير للدلالة على أدوات الجذب التي يستخدمها إبليس، والتي تختلف بين شخص وآخر، وعلاقتها بنقاط الضعف عند الإنسان هي علاقة تناسب عكسي، بمعنى أن

حاجة إبليس إلى الحبائل تزداد كلما قلّت نقاط الضعف عند الإنسان، وتقلّ كلما زادت نقاط الضعف عنده.

وفي تقريب الفكرة نتصور شخصًا يملك مجموعة حبال يستخدمها في سحب الأجسام، فلو أراد سحب حجر صغير فإنه يكتفي بحبل واحد يسحبه به، بينما لو كانت أمامه صخرة كبيرة ثقيلة الوزن فإنه سيحتاج مجموعةً كبيرةً من الحبال يشدُّ كل حبل منها شخصٌ على حده، وهكذا فكلما كبُر الجسم ازدادت الحاجة إلى الحبال والأشخاص.

وهذا حال إبليس مع الناس، فبعضهم كحبة الرمل يكفي أن ينفخ عليها ليحركها دونما حاجة إلى الحبال، وبعضهم كالحجارة يحتاج لجذبه الحبل أو الحبلين، وبعضهم كالصخور الضخمة يحتاج معها كثير جهد، وبعضهم كالجبال الراسخة لا ينفع معهم كل جهده وسعيه. وكل ذلك يرجع إلى حجم ونسبة نقاط الضعف لدى الإنسان.

ولا بأس هنا من طرح بعض الأمثلة على نقاط الضعف عند البشر وكيفية استفادة إبليس منها في تضليل الناس وإغوائهم.

المثال الأول: الغضب: وهي حالة توفّر لإبليس حال استحكامها بالإنسان القدرة على السيطرة التامة عليه. وقد بيّنت التجربة أنَّ الإنسان عند استحكام غضبه يفقد توازنه العقلي، فقد يشتم، أو يهين، أو يكذب، بل قد يصل به الحال إلى القتل، قتل الأهل أو الأبناء أو الزوجة، وهذا ما نسمع بحدوثه يوميًا في وسائل الإعلام، كما أنَّ البعض عندما يغضب فإنَّه قد يشن حربًا إقليميةً أو عالمية، كل بحسب إمكاناته وقدراته وموقعيته. فالغضب من أخطر نقاط ضعف الإنسان، لذلك ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «واحذر الغضب فإنه جندٌ عظيم من جنود إبليس»[1]، فهو ليس مجرد جندي عادي أو مجموعة محدودة، بل هو جند عظيم هائل من جنود إبليس.

---

(1) الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، باب المختار من كتب أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله، الكتاب 69.

المثال الثاني: العجب: حيث إن الإنسان عندما يُعجب بنفسه فإنه لا يرى عيوبها، ويراها فوق أي أحد، ويصبح الإطراء منتهى غاياته، وهذا مؤشر صريح على استحالته أسيرًا بين يدي إبليس، فيصبح هو المدخل لكل علاقاته ومواقفه وكلامه وتقييماته وتقديراته، ولذلك فإن أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء فإنّ ذلك من أوثق فرص الشيطان»[1]، فليس ذلك مجرد فرصة له بل من أوثق فرص الشيطان.

المثال الثالث: ورد في المروي أنَّ حوارًا دار بين موسى عليه السلام وإبليس، فسأله موسى متى تتسلط على الإنسان وأين وكيف، فمن جملة الموارد التي أجاب بها: «يا موسى لا تخلُ بامرأة لا تحلّ لك، فإنه لا يخلو رجلٌ بامرأة لا تحلّ له إلا كنت صاحبه دون أصحابي»[2]، إذ إن

(1) الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، باب المختار من كتب أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله، الكتاب 53.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، الجزء 13، الصفحة 350.

إبليس في بعض حالات التضليل يرسل أحد أفراد جماعته وجنده، ولكنه في حالات أخرى يأبى إلا أن يؤدي المهمة بنفسه، وذلك حين تكون المواجهة بالنسبة له على درجة عالية من الأهمية وتكون مما يبني عليه إبليس أملًا كبيرًا بالسيطرة على الإنسان سيطرةً تامةً فخشية تضييع الفرصة يتقدم شخصيًا للمواجهة، وهذا معنى كنت صاحبه. ومن أهم تلك الحالات الخلوة بين الرجل والمرأة الأجنبيين.

5. العمل التدريجي المنتظم: وهو من العناصر الخطيرة في سياق عمل إبليس، حيث إنَّه لا يبتغي في عمله النتائج العاجلة دائمًا، بل يتحلى بصبر طويل، فيعمل على الإنسان رويدًا رويدًا، ولذلك ورد عن الأمير عليه السلام أنَّه قال: «ويريد أن يحلَّ دينكم عقدةً عقدة»[1]، أي يعمل على دينكم بشكل تدريجي فلا يسعى دائمًا للمواجهة بضربة قاضية، بل يغلب المرء في بعض النقاط التفصيلية ثم يحقق في الختام فوزه التام.

---

(1) الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، باب المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام وأوامره، الخطبة 121.

وفي سعيه التدريجي هذا، فإنه يبدأ بالسهل من الأهداف ثم ينتقل شيئًا فشيئًا إلى الصعب منها، فإنَّه مثلًا يعلم جيدًا أنَّ من الصعب عليه أن يأتي إلى إنسان مؤمن ويطلب منه ترك الصلاة، لأنَّه لن يسمع له حتمًا، كما أنَّه يعلم مدى صعوبة طلب ترك الصيام في شهر رمضان من الإنسان الملتزم، فهذه بالنسبة له أهداف مستعصية لا يطلبها في المراحل الأولى، لكنَّه يعلم مثلًا أنَّ من الميسور له دفع الإنسان المؤمن نحو بعض المعاصي كالغيبة والنميمة وسوء الظن بالناس، فيبدأ بالسعي إلى تحقيق هذه الأهداف السهلة. وهنا نستحضر ما ذكرناه منذ قليل حول نقاط الضعف لدى كل إنسان، فإبليس يستفيد من نقاط ضعف كل إنسان لأنها أهداف سهلة، فيستغلها ويدخل إلى قلب الإنسان منها، متجنبًا نقاط قوة الإنسان، كما أنَّ الجيش الساعي إلى اقتحام بقعةٍ لا يدخلها من مواقع تواجد الدشم والقناصين والسلاح المعتدّ به، بل يدخل من ثغرة يعتبرها ضعيفةً وسهلة الاختراق. وبعد استغلاله نقاط الضعف يبدأ إبليس بفك العقد المستصعبة عقدةً عقدة.

قد يجد شابًا تقيًا، ورِعًا، محبًا للناس، خدومًا لهم، في سهرة مع مجموعة شبانٍ ممن يتعاطون المخدرات، فيقوم أحدهم بتقديم حبة لهذا الشاب، فيأتي هنا إبليس ليقنعه بأنَّ هذه الحبة لن تضره بشي وأنَّ على الإنسان أن يجرّب كل شي، فيأخذها الشاب وتبدأ هنا رحلة الانحراف عن سكة الصواب، ثم تترقى به الحال فيتحول مع الوقت إلى مدمن مخدرات، فيحدث يومًا أن يحتاج إلى هذه المادة المخدِّرة فلا يجد المال الكافي لذلك، فيدفعه الشيطان للسرقة، ثم مع مرور الزمن يصبح فردًا من عصابة سارقين، وبعد مدة وإثر حادثة معينة يضطر أن يقتل في سبيل السرقة. إذًا، من حبة مخدر، إلى إدمان للمخدرات، إلى السرقة، فالانضمام إلى عصابات النهب والإجرام، إلى قتل النفس المحترمة. وبهذا يكون إبليس قد وصل بشاب تقي نقي إلى مستوى القتل عامدًا بالانطلاق من إقناعه بحبة من حبوب المخدرات، الموجودة الآن في كل مدارس لبنان مع الأسف الشديد، وفي كل المدن والقرى والبلدات حتى القرى الصغيرة. وهكذا فتضليل إبليس

يكون خطوةً خطوة، وهذا مثال على ذلك.

ومن الأمثلة ما ورد في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: إنّ رجلًا كان يتعبد في صومعة – بعيدًا عن الناس وحياتهم، وهذا كان من فعال الزُهّاد العُباد الأتقياء – وإن امرأةً كان لها إخوة فعرض لها شيء – وكان الناس في سالف الأزمنة شديدي الاعتقاد بمسائل تسلّط الجن على الناس وسيطرة النفوس الشريرة على الضعفاء، فقرروا أخذ أختهم عند هذا العابد ليجد لها حلًّا – فأتوه بها، فزيّنت له نفسه فوقع عليها، فجاءه الشيطان – بعد أن أخطأ وزيّنت له نفسه، فما العمل الآن؟ إن علم أحد إخوتها بالأمر فإنَّ العابد سيُفتضح بين الناس – فجاءه الشيطان فقال اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتُضحت – فخاف العابد الفضيحة ولم يخف مغبة القتل، بهذه الحجة زيّن له الشيطان قتل نفس بشرية – فقتلها ودفنها فجاؤوه وأخذوه وذهبوا به – أي أخذوه ليفهموا منه واقع ما جرى ويطلبون معرفة مكان أختهم – فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال له إني أنا الذي زيّنت لك فاسجد

لي – كما طلب ربك مني أن أسجد لأبيك آدم – فاسجد لي سجدةً أُنجيك، فسجد له، العابد الزاهد الذي اعتاد جبينه السجود لله، سجد لإبليس، ولكن الشيطان لم ينجه. وهكذا تحول الرجل من عابد زاهد منقطع عن الناس، جاؤوه بامرأة كي يقرأ لها دعاءً يشفيها به الله، إلى مرتكب للفاحشة، فقاتل للنفس البريئة، فساجد لإبليس. وهكذا فقد بدأت رحلة المعاصي تلك بخلوة غير شرعية قبل بها العابد أدت به إلى حيث رأينا، وللأسف فإنَّ الخلوات غير الشرعية قد باتت من البلايا المستشرية في مجتمعاتنا اليوم، نتيجة تساهل المؤمنين في هذه المسألة بشكل غريب.

مقدرات الإنسان في مواجهته مع إبليس

كنا قد ختمنا الفصل الثاني بسؤال مفاده أنَّ الله سبحانه الذي خلقنا وفرض علينا مواجهة إبليس، ما المقدرات والإمكانات التي أتاحها لنا في مواجهتنا لهذا العدو. وقد حان الآن وقت بيان هذه المقدرات، وسنتبع

بيانها بذكر مجموعة من الإرشادات اللازمة في مواجهة إبليس والانتصار عليه. فأمَّا المقدرات فنذكر منها:

1. **العقل:** فقد زودنا الله سبحانه بعقول لنفكّر بها، ونفهم ونستوعب ونقدّر العواقب والمخاطر، ونعرف التهديدات والفرص، ونكتشف الأساليب والوسائل والحبائل والخدع والمكر والكيد، كل ذلك بإمكاننا توظيفه في مواجهة إبليس، وعقل الإنسان هو معيار قيمة الإنسان الحقيقيّة، فمن لا يُعمِل عقله كمن لا عقل له. إذ ما فائدة العقل إن لم نستخدمه؟

2. **الهداية الإلهية:** حيث إنَّ الله سبحانه حذّر – منذ بدء الصراع – آدم وزوجه من إبليس بأنَّه عدوّهما وبيّن لهما ما يريده منهما، ثم حذّر بنيهما بعدهما بإرساله الأنبياء والرسل والكتب السماوية، الذين حدّثونا عن إبليس وعن النفس الأمّارة بالسوء، وعن طريق الهدى وطريق الضلال، وعن التزكية وتهذيب النفس، وعن مخاطر الغواية والانحراف،

كما أشـاروا لنا إلى نقاط ضعفنا التي يستغلها إبليس، كيما نحصّن أنفسنا منه، ونتوخى الحذر من ألاعيبه. هم حدّثونا عن كل شيء، وبيّنوا لنا كل شيء، فالحجّة قائمة علينا – مضافًا إلى العقل – ببيان الأنبياء والرسل طوال التاريخ وبكتاب الهداية الإلهي الموجود الآن بين أيدينا.

3. **تجارب البشر السابقين جيلًا بعد جيل:** فكما أنَّ عمر إبليس الطويل يعتبر نقطة قوّة له، وبرغم قِصَر أعمارنا نحن البشر، إلا أنَّ بين أيدينا تراكمًا كبيرًا لتجارب الأمم السابقة، وأمير المؤمنين عليه السلام عندما يوصي ابنه الحسن عليه السلام فإنَّه يوجهه نحو هـذا المعنى، حيث يحثّه نحو النظر إلى تجارب البشرية كلها والاستفادة منها كأنما قد عاش كل أعمار السابقين. ولذلك فإننا ندرك جيدًا أنَّ وعي جيل اليوم ليس كما وعي الأجيال السابقة علينا بمئة أو ألف سنة، فالبساطة التي كانت موجودةً في الزمن السابق لم تعد موجودة، وحلّ محلها

مستوًى أعلى من الفهم والإدراك والإحاطة والقدرة على استيعاب الأمور، وذلك ليس إلا نتيجة تراكم التجربة.

4. **حرية الاختيار:** فإنَّ الله قد خلق الإنسان حرًا مختارًا، لا سلطان لإبليس أو لغيره عليه، وهذا ما أشرنا إليه في الفصل السابق من أنَّ الله لم يسلّط إبليس علينا بسلطة تكوينية، وأنَّ من غير المقبول القول إنَّ لا قدرة لنا على التخلص منه، بل نحن أحرار في اختيارنا بين أن نطيع الله وأنبيائه أو أن نطيع إبليس.

5. **الإرادة والعزم:** حيث أعطى الله الإنسان العزم والإرادة والقدرة على المواجهة، وهذه من أهم عناصر القوّة في المواجهة مع إبليس، بشرط أن تكون محكومةً للعقل، وأما في حال ضعفها أو تحكيم الشهوة والنفس الأمّارة بها فإنها ستودي بصاحبها. وقد شهدنا آثار غياب هذه العناصر عند بعض اللبنانيين عندما اجتاح العدو الإسرائيلي

الأراضي اللبنانية حيث جبنوا عن مواجهته، مع أننا بيّنّا يومها أنَّ إسرائيل عدو لكل لبنان وأنَّ جيشها جيش احتلال، واقتنع هذا البعض بكلامنا، لكن فقدانه عوامل القدرة والإرادة والعزم على المواجهة دفعاه لتبرير هزيمته بالأعذار والتفسيرات غير المقبولة.

6. **الطاقة على الصبر والتحمّل:** وهي طاقة زودنا بها الله، وكل فرد منّا يملك هذه القدرة ولكن حسب قراره، فإنَّ باستطاعته أن يصبر ويتحمّل، يتحمّل الجوع أو العطش أو القتال أو الجهد أو الحروب أو الغربة حسب ما تقتضي ظروفه، ومن شواهده صبر أهل الأزمنة الماضية – ما قبل التطور التكنولوجي – على مرارة الغربة، حيث كان السفر لتأمين فرصة للمعيشة يعني الانقطاع التام عن الأهل والزوجة والأولاد لسنين عدة، فلولا طاقة التحمل هذه لما كان الرجل صبر لسنوات بعيدًا عن أهله ولا كان أهله سيصبرون أيضًا على غيابه.

فهذه الطاقة التي أوجدها الله سبحانه وتعالى فينا هي من عناصر المواجهة الرئيسية، ولو أنّ الله لم يعطنا هذه الطاقة لما كنا استطعنا المواجهة، إذ لا مواجهة بدون صبر، ولا نصر بدون صبر، وخصوصًا في المواجهة مع إبليس، حيث نحتاج الصبر على ترك المعصية، والصبر على الشهوات والملذّات، وقد عُدّ هذا من أعظم مصاديق الصبر في الفهم الديني والثقافة الدينية.

كانت هذه أهم الإمكانات التي وفرها الله سبحانه لنا، وليست هي الوحيدة، ولكنني سأكتفي بهذا القدر؛ وهي كما ذكرنا: العقل، والهداية الإلهية، وتراكم التجارب البشرية، وحرية الاختيار، والإرادة والعزم، والطاقة على التحمّل والصبر.

وبعد معرفة إمكانات إبليس وإمكاناتنا فإنَّ لنا أن نسأل: عندما نعتزم مواجهة إبليس، فما هي خطتنا للمواجهة؟ كيف نواجه إبليس ونضمن أن نغلبه ولا يغلبنا؟ كيف نصل به إلى حالة اليأس

والطرد من ساحة أنفسنا كما طرده الله من الجنة؟ يأتي ذلك في الفقرات التالية.

إرشادات لا بد منها في المواجهة مع إبليس

نقدم في الآتي مجموعة إرشادات هي في واقعها إرشادات نبويّة وإلهيّة بالإضافة إلى ما قدمته التجربة البشرية:

1. **اليقظة، الانتباه، وعدم الغفلة.** ونوضح الفكرة بتقديم مثال عسكري كتشبيه. لنفرض أننا نقطن في قرية، أو معسكر، مستهدف من قبل العدو، ففي حال كنا جميعًا نيام فإنَّ العدو سيدخل ويحتلّ القرية دون معركة أو صراع حتى، وتكون مواجهتنا آلت إلى الهزيمة من الساعة الأولى.

إذًا، فاليقظة والانتباه وعدم الغفلة هي أولى شروط الفلاح في المعركة لأنني سبق وقلت لكم أنَّ هذه المعركة، التي أشرنا سابقًا إلى كونها مندلعةً على

مدار الساعة وعلى مدار النفس، هي معركة بيننا وبين إبليس فيلزم الانتباه واليقظة وعدم الغفلة.

2. **المراقبة والحراسة.** فلو كنا جميعًا مستيقظين في هذه القرية، ولكن مجتمعون في سهرة عند المختار مثلًا نشرب الشاي، فإنَّ العدو سيدخل القرية ويحتلها، فبماذا يفيد استيقاظ كهذا؟ اليقظة الدائمة تنفع عند انتشار الحراسة حول حدود القرية، التي تضمن المراقبة الدائمة لكل حركة في محيطها، وهذا يسمى بيقظة الرقيب. وكذا الحال في خصوص الموضوع النفسي، فعلى الواحد منّا أن يكون بحال من اليقظة والرقابة الدائمين في إزاء نفسه، فلا يجيز لعينه النظر إلى ما تريد، ولأذنه سماع ما تريد، وللسانه النطق بما يريد، وليده فعل ما تريد، ولقدمه السير أينما تريد، بل عليه وضعها تحت المراقبة والحراسة وضبط كل قول يقوله أو نظرة ينظرها، أو فعل يفعله، بضوابط محددة، أما إن كانت طاقاته وإمكاناته وجسمه وشهواته كلها

خارج نطاق المراقبة والحراسة فلا ندري ما يكون مصيره.

3. **تطهير المحل، وهو في كلامنا هنا النفس:** فلو أنَّ صاحب متجر أراد منع الحشرات من دخول متجره، فعليه أول الأمر أن يحافظ على نظافته، ذاك أنَّ الحشرات إنما تتواجد في أمكنة تجمّع الأوساخ، وهذا تقريب دقيق للفكرة، فمن أراد منع إبليس وجنوده من دخول قلبه فعليه تطهيره من الكدورات، لأن إبليس وجنوده لا يدخلون قلبًا طاهرًا من الرذائل. وهذا في الواقع إجراء استباقي يهوّن علينا مواجهته، فبدل أن نواجهه في محلّ متّسخٍ فتطول معركتنا معه، فالأفضل لو نطهّر المحل بحيث لا يبقى لإبليس مكان، تطهيره من كل ما يجذب إبليس نحونا. ومقصودنا من تطهير النفس العمل على تخليتها من الرذائل، كالحسد والغضب، وغيرها مما يستغله إبليس، بالسعي للاتصاف بما يعاكسها من الفضائل، فأسعى بقدر جهدي إلى

تخفيف الحسد والمحافظة على هدوئي التام، ومن أراد مزيد اطلاع على هذا الحقل العلمي فبإمكانه الاطلاع على كتب الأخلاق التي نجد فيها كثيرًا من البرامج التي ترشد إلى كيفية التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل، فتحويل الإنسان الغضوب إلى هادئ ليس أمرًا مستحيلًا، بل إنَّ ذلك أمر ممكن بشرط اتباع نوع من العلاج النفسي ترشدنا إليه تعاليم علم الأخلاق المستندة إلى المروي عن أهل البيت عليهم السلام، كما ويمكن تحويل الحسود، بالتزكية والتربية وبالجهد وببرنامج روحي معيّن، إلى شخص ودود محب للناس، وكذا البخيل إلى جواد، والجاهل إلى عاقل، واللئيم إلى كريم، والجبان إلى شجاع، وكل ذلك ببرنامج تدريجي.

فإن كان من المستعصي، مثلًا، طلب القفز عن ارتفاع أحد عشر طابقًا من ضعيف القلب، فإنَّ من غير الصعب إقناعه بالقفز بدايةً عن ارتفاع متر ونصف، ثم بعدها عن ارتفاع طابق واحد، ثم

طابقين، وهكذا ينكسر مع الوقت حاجز الخوف لديه شيئًا فشيئًا، فيقفز آخر الأمر عن الطابق الحادي عشر. كما أننا لا يصح منا أيضًا أخذ شخص ضعيف القلب إلى أرض الجبهة مباشرةً، حيث قصف المدافع والطائرات، بل علينا بادئ الأمر أن ندربه على إطلاق الرصاص، ثم نخضعه للتدريبات اللازمة، لكسر حاجز الخوف، وبعدها نرسله إلى الجبهة.

من هنا فالنفس البشرية ليست عصيةً على التغيير، وتطهيرها أمر متيسّر بالجهد والسعي، وهو كما عرّفت من أهم وسائل إضعاف إبليس في المواجهة، حيث إنَّه لا يجد في النفوس المطهّرة أي أمر لاستغلاله والاستفادة منه في معركته مع الإنسان.

4. **توفير البيئة المناسبة لطرد إبليس:** وهو استكمال للخطوة السابقة، فبعد تخلية النفس من عناصر قوّة إبليس، ينبغي توفير ما يطرده من العناصر إن

هو حاول الاقتراب منا. كتجنّب الخلوة بالأجنبية، مثلًا، فإنّه يبعد إبليس عن الإنسان، لأنّه ينفي وجود فرص له، وكذا تجنّب كل ما يجذب إبليس إلينا.

ويكون توفير هذه البيئة، مثلًا، بالبحث عن الزوجة الصالحة، حيث يحقق وجودها ضمانةً لصمود الرجل وحصانته في مواجهة الشياطين، وعدم الاغترار بالجمال والمال دون لحاظ الأخلاق والصلاح والطهارة والنقاء، لأنَّ ذلك مورد للهلكة وحلول المصائب. والكلام عينه يصدق للنساء إذ ينبغي عليهن البحث عن الزوج الصالح.

ويكون توفيرها أيضًا بالبحث عن الرفاق الصالحين لأنَّ رفاق السوء يجرونك إلى إبليس، أما الصالحون فيدفعونك نحو الله، يساعدونك ويحصّنونك ويعينونك على دينك وعلى نفسك وعلى شيطانك.

5. **عمل الصالحات.** والتوجيه إليه مما تعج به الروايات،

كما أنَّ تحديد الأعمال الصالحة إنما يكون بالاستناد إلى الروايات، ذاك أنَّ الأنبياء، ولكونهم هم رسل الله إلينا، هم من ينبغي اتباع إرشاداته في المعركة مع إبليس.

فكما نتّبع في المعركة العسكرية إرشادات الجنرالات والضباط في تحديد السلاح الأجدى لكل موقف، فيحددون للهدف الفلاني المدفع، أو الرشاش، أو العبوة، أو سلاح ضد الدروع، أو المدفع المباشر، أو المدفع المنحني، أو التسلل أو الهجوم المكشوف العلني؛ ففي الحرب التي تخوضها النفس مع إبليس والشياطين والنفس الأمّارة بالسوء، فعلينا أن نسأل خالق النفس لأنّه هو العارف بأسرارها وزواياها وينبغي طلب إرشاداته وتعاليمه، والأنبياء والأئمة المعصومون هم رسله إلينا وما ورد عنهم في المروي هي تعاليم الله وإرشاداته، وقد ورد عنهم قدر كبير من المرويات التي تحدد مصاديق العمل الصالح الطارد

لإبليس. ذاك أنَّ إبليس وجماعته يهربون من أفعال الطاعة والعبادة التي أوّلها الصلاة، ومن أصعب الأمور عليهم رؤية إنسان يصلي، لأنَّ الصلاة فعل طاعة من جهة ولأنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر من جهة أخرى، فهي في مواجهة وسوسة وتزيين إبليس كالمضاد الحيوي، والصلاة المقصودة في كلامنا هي الصلاة بتوجه وخشوع وحضور قلب لا الصلاة الشكلية، فهي التي تطرد إبليس وتقطع عليه الطريق وتصل به إلى مرحلة اليأس، وكذلك فعل الطاعات.

ومن الشواهد الصريحة على هذه النقطة رواية الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله يقول لأصحابه: «ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق عن المغرب. قالوا: بلى. قال: الصوم يسوِّد وجهه، والصدقة تكسر ظهره والحب في الله والمؤازرة على العمل الصالح

يقطعان دابره، والاستغفار يقطع وتينه»[1]، لأنَّ أكبر أهـداف إبليس هـو إيقـاع الإنسـان فـي المعصية ومنعه من الاستغفار، فيسعى دائمًا للحيلولة بين الإنسان والاستغفار لأنَّ الله يقبل التوبة عن عباده. إذًا، فعل الطاعات وعلى رأسها الصلاة بحضور قلـب وخـشـوع وتـوجّـه إلـى الله سبحانه وتعالى يطرد إبليس وجنوده ويبعدهم ويحصّنك ويقوّيك ويثبّتك.

6. **وأخيرًا، الاستعانة بالله.** قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[2]. ومعنى أن نعوذ بالله هو أن نلجأ إلى الله أولًا وآخرًا. وأود في خصوص هذه النقطة أن أقول: رغم كل الخطوات التي قد نأخذها، ومع كل الطاقات والإمكانات التي لدينا، ومع كل ما يمكن عمله واتباعه من برامج، فإنَّ الأصل في تحقيق النصر هو الاستعانة بالله سبحانه وتعالى،

(1) الشيخ الكليني، الكافي، الجزء 4، الصفحة 62.

(2) سورة النحل، الآية 98.

والاستعاذة بالله عزّ وجل، واللجوء إليه عزّ وجلّ، والثقة به سبحانه وتعالى، والتوكل عليه. ولذلك يقول الله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

باللجوء إلى الله والاستعانة به والتوكل عليه لا نهزم إبليس فقط، بل نهزم كل الشياطين، لأنّ الله سبحانه وتعالى هو القويّ، المتين، العظيم، القادر على كل شيء، جبار السموات والأرض، وأنت إنما تستعين بالله على كائن ضعيف لا يملك إلا لسانًا يُضل ويزيّن ويخدع به، فهذا يضمن هزيمة إبليس. ومن هنا فاللجوء إلى الله، والاستعانة به شرطٌ أساسيّ في هذه المواجهة.

إذًا، فنحن نملك في هذه المواجهة مجموعةً من الطاقات والإمكانات، كما ونعرف السبيل لما وردنا من إرشادات، والمطلوب منّا هو أن نصمد ونصبر،

---

(1) سورة النحل، الآية 99.

وأن لا نصغي لوساوس الشيطان، وأن لا نفتح له صدورنا وقلوبنا ليزيّن لنا ويكذب علينا ويخدعنا ويمنّينا ويسوّف لنا. كما وعلينا أن ندرك أنَّه رغم كل ما قد نكون ارتكبنا في هذه الحياة الدنيا من معاصٍ، فإنَّ الفرصة ما تزال متاحةً أمامنا للتوبة، والاستغفار، والإنابة، والعمل الصالح، والتزكية، والتطهّر، ولكن علينا ألا نصغي إلى تسويفات إبليس، لأنَّ أحدًا منا لا يعلم إن كان سيبقى حيًا لساعة أو ساعتين قادمتين، وبالتالي فنحن معنيون بخوض هذه المعركة بوعي وانتباه ويقظة ومراقبة وحراسة وتطهير وتزكية وعمل الصالحات والاستعانة بالله سبحانه وتعالى حتى نصل إلى مرحلة الثبات والتمكين والتحصين، فنهزم إبليس ونطرده من ساحتنا، فهذا أمر ممكن وفي متناول أيدينا.

وهذا ما يسميه رسول اللهِ بالجهاد الأكبر. حيث ورد في رواية معروفة عنهِ أنه قال لأصحاب له بعد عودتهم من غزوة أو معركة ما مفاده: أهلًا بقوم أدّوا

الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فاعتبر القتال، ومواجهة السيوف، وسقوط الشهداء والجرحى جهادًا أصغر، فيما اعتبر جهاد النفس وهذا النحو من المواجهة مع إبليس جهادًا أكبر، ولعل من أسباب ذلك أنَّ هذه المعركة أصعب، فقد يمكن أن يكون الشخص ممن شارك في قتال إسرائيل، ومن بعده قتال التكفيريين، وألحق بهم الهزيمة، لكن في معركة النفس ووسائل النفس الأمّارة بالسوء وتزيين إبليس وشياطينه يسقط وينهار، والتاريخ مليء بنماذج هذا حالها. وبالعودة للحديث عن واقعة كربلاء، فهذه كانت كل القصة.

وقفةٌ تفحّصية على واقعة كربلاء

وفيما خص أحداث كربلاء، فإنَّ القوم كانوا على معرفة بالحق وأصحابه، وكانوا يعلمون أنّ الحسين هو صاحب الحق، وقد عرفوا كلًّا من الحسين ويزيد على حقيقته، وعرفوا حقيقة ما يمثّل الحسين للأمّة وما يمثّل لرسول

اللهِ، القيادات كما الجنود، كلهم كان يعلم، ولذلك نجد في المأثور أنَّ عمر بن سعد – وهي قصة تُقرأ كل سنة ويجب أن تُقرأ وتُعاد دائمًا لأنَّ فيها عبرةً عظيمةً – وُضع أمام خيارين، إمّا أن يقتل الحسين عليه السلام ويصبح السلطان على الري وجرجان مع علمه بما لقتله من عواقب وخيمة يوم القيامة وإمّا أن يمتنع عن قتله تاركًا الملك الذي حلم به طول عمره، وقد شغل هذا السجال عقل عمر بن سعد طوال الليل قبل أن يردّ الجواب، وقد كان هذا النقاش في واقعه وحقيقته لا بين عمر ونفسه، بل بين عمر ونفسه وإبليس، ولكن الغلبة في هذا السجال كانت بعد الكر والفر لإبليس. إذًا، فمشكلة عمر بن سعد لم تكن معرفيةً ولا مشكلة انعدام وعي أو نقصان عقل، ولا خطأً في التشخيص أو جهلًا اجتماعيًا، ولا في فهمه الديني أو سوء تقديره للعواقب.

فما هي قصة عمر بن سعد؟ أتاه الشيطان فوجده رجلًا مشتهيًا للسلطة طالبًا لها أمام أي مقابل حتى لو كان قتل الحسين ابن بنت رسول اللهِ ودخول جهنم

وحلول لعنة الله والأنبياء والبشر إلى قيام الساعة عليه، فقد أعمى حبها قلبه وعقله وإرادته وعزمه وسيطر عليه، فدخل إليه إبليس من بابها وأقنعه بقبول المهمة لقاء كسب ملك الري، فحسم قراره بأن يقود الجيش لقتال الحسين. ولا ينفي ما يُنقل في بعض كتب السيرة والتاريخ من أنَّه دخل في المفاوضات وحاول إقناع الحسين بالبيعة لعبيد الله بن زياد ويزيد وأنَّه كان متردّدًا بالقتال، أنَّه كان على دراية بما يفعل، وأنَّه سقط في امتحان الولاء لله، وقد كانت الفرصة متاحةً له حتى آخر لحظة، بل حتى بعد شهادة أبي الفضل العباس وقبل شهادة الحسين عليه السلام، كانت الفرصة ما تزال متاحةً ليلتحق بالحسين ويربح آخرته.

معركتنا الأساسيّة

إذًا فالقضية المركزية بالنسبة لنا جميعًا ينبغي أن تكون قضية جهادنا الحقيقي في معركتنا مع إبليس، التي على ضوء مجرياتها تُحسم كل المعارك، وعلى ضوء موقفنا

فيها تُحسم كل المواقف، وعلى ضوء الموقع الذي نختاره فيها تُحدّد كل المواقع، ونُصنَّف ونُميَّز. فهذه الدنيا هي دار الاختبار والابتلاء والامتحان. فمن الممكن أن يسأل أحد لماذا ترك الله لنا إبليس ومدّ في عمره آلاف السنين؟ والجواب أنَّه سبحانه لم يجعل له سلطةً علينا بل وجوده جزء من الابتلاء، فكما أنَّه أعطاك مجموعة قوًى نفسانية وترك لك خيار توظيفها في صلاحك أو شقائك، واعتبرها جزءًا من الامتحان، فكذلك حال إبليس، حيث لم يخضعك الله له، بل أخضعك لعقلك وإرادتك وعزمك ووعيك ومعرفتك.

وهذا، كما ذكرنا، هو مورد الجهاد الأكبر، الذي يجب أن نخوضه ليل نهار، وعلى امتداد عمرنا وحياتنا، وأن لا نغفل عنه لحظةً من اللحظات، لأننا لا نعلم متى يُنصب لنا الكمين وأين يُقطع علينا الطريق.

على الإنسان أن لا يطمئن لتاريخه، أو لجهاده، أو لثقافته، أو لعلمه، أو لعمله الصالح، أو لثقة الناس به، فهذا كله لا ينبغي الركون إليه. رُوي عن أحد الأئمة عليهم السلام

ما مفاده أنّ إبليس حتى صعد إلى الأعلى وأصبح في عِداد الملائكة احتاج آلاف السنين من العبادة – من ركوع وسجود وذكر وصوم وصبر وغير ذلك مما يعلمه الله من صنوف العبادة – لكنه سقط في ساعة، وهذا مما يُخشى علينا نحن البشر، إذ كلنا معرّضون للسقوط في ساعة واحدة، فعلينا ألا نغفل عن هذه الساعة التي قد تودي بنا، وقد سبق لي أن حادثت بعض الإخوة بأننا إن سقطنا – لا سمح الله – وظهر صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف فإننا من الممكن أن نقاتله ونحمل السلاح في وجهه. فهؤلاء الذين قاتلوا الحسين عليه السلام في الكوفة كان أغلبهم قد بايعه وأرسل له الرسائل بأنهم أنصاره المنتظرون له وأنهم مستعدون للقتال معه، لكنهم في لحظة واحدة سقطوا.

أعاذنا الله وإياكم، وأعاننا الله وإياكم، على أنفسنا وعلى شهواتنا وعلى شياطين الجن والإنس، خصوصًا في هذا الزمن، الذي نقف فيه في جولة عظيمة من جولات الجهاد الأكبر والتحدي الأخطر والأعظم. أعاننا الله وإياكم

وأسأل الله سبحانه وتعالى بحق الحسين ومظلوميته ودمائه وآلامه أن يُحسن لنا العواقب وأن يجعلنا من عباده الصالحين وأن لا يسلط علينا شياطين الجن والإنس.

الفصل الرابع:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حركة الإمام الحسين عليه السلام

تمهيد

بعد أن أتممنا في الفصل الثالث الكلام في حقيقة وطبيعة الصراع بين الإنسان وإبليس، والذي كنا شرعنا فيه انطلاقًا من السؤال عن حقيقة الصراع بين الحسين عليه السلام ويزيد، فإنا سنقف في هذا الفصل على معالجة مسألة مستقاة من كلمات الإمام الحسين عليه السلام أيضًا، ترتبط بشكل وثيق بالمباحث السابقة.

عند الوقوف على كلمات الإمام عليه السلام المرتبطة بواقعة كربلاء، فإنا نجد أنَّ من أهم عباراته عبارة تُتلى على آذاننا دائمًا يحدد فيها الإمام عليه السلام الغاية المتوخاة من خوضه لتلك المواجهة وهي قوله: «وإني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير

بسيرة جدي وأبي عليّ بن أبي طالب عليه السلام فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن ردَّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين».

وهي تؤشر على أنَّ أحد أهم عناوين الحركة الجهادية للحسين عليه السلام سنة 60-61 للهجرة كان عنوان «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وهو ما سيكون موضوع معالجتنا في هذا الفصل.

وأما آلية المعالجة، فسوف نقسّم الكلام في بحثنا إلى قسمين، أولهما نظري يتناول المفهوم والفكرة ويعالج متعلقاتها المعرفية، والثاني تطبيقي يتكئ على القسم النظري ليتناول الجنبة التطبيقية المتعلقة بالمفهوم مورد المعالجة، لنصل إلى تحديد المسؤوليات الملقاة على عاتقنا جميعًا.

أولًا: المعالجة النظرية لمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وسيتم الكلام فيها ضمن نقاط ستة إليك تفصيلها:

أولًا: بغية توفير معالجة منهجية لمبحث الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن علينا تحديد معنى مفهومَي المعروف والمنكر ودلالاتهما.

فنقول في الصدد: المعروف هو ما استحسنه الشارع المقدّس أو أمر به من أفعال وأقوال وأخلاق، من مصاديقه: الصدق، أداء الأمانة، مساعدة الفقراء، إصلاح ذات البين، تعليم الجاهل، توحيد الكلمة، صلة الرحم، أداء الحقوق، وغيرها الكثير.

وفي المقابل، فإن المنكر هو كل ما أنكر الله علينا فعله ونهانا عنه من أفعال وأقوال وأخلاق، ومن مصاديقه: الكذب، الغيبة، النميمة، اللعن والشتم والسب، الفتنة، قتل النفس المحترمة، الاعتداء على الأعراض، سرقة الأموال، عقوق الوالدين، أذيّة الجيران، قطيعة الرحم، وغير ذلك الكثير.

وكما رأيت، فإنَّ المعيار في تحديد كل من المعروف والمنكر – في فهمنا الإسلامي – هو إرادة الله سبحانه، المتجلية بتعاليم الشريعة التي بينها القرآن الكريم وأحاديث أهل العصمة.

ومما يجدر أن الفت إليه هنا، أنَّ ما أمر الله به واعتبره معروفًا، منذ بداية الخلق وحتى قيام الساعة، هو في واقعه وحقيقته خيرٌ لبني البشر في دنياهم وآخرتهم، وأنَّ كل ما نهى الله عنه واعتبره منكرًا، منذ بداية الخلق وحتى قيام الساعة، هو في حقيقته شر وفساد وأذًى على بني البشر في دنياهم وآخرتهم. وإلا فإن الله سبحانه وتعالى غنيّ عنا لا تنفعه عبادتنا، أو جهادنا، أو صدقاتنا، أو زكاتنا، أو كل ما يمكن أن نفعله من معروف أو نأمر به في هذه الدنيا؛ كما أنَّه لا تضرّه معاصينا وتعدياتنا وارتكاباتنا السيئة، ولا كل ما يمكن أن نفعله من منكرات.

فلا تظنّن أن تعلُّق إرادته بالمعروف وإنكاره للمنكر هو لغاية يبتغيها سبحانه، بل هو الغنيّ الكبير القدير القدوس، الذي لا يصله خيرنا ولا يناله شرنا.

ثانيًا: إنَّ الله سبحانه في فرضه على كل مؤمن ومؤمنة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي إعطائها هذا القدر من المركزية في حياة كل ملتزم بالإسلام،

فذلك إنما هو تأكيد منه على أصالة المسؤولية العامة في الإسلام، وبعبارة أخرى: إنَّ الدين الإسلامي – وهذا من مؤشرات عظمته – إنما يُحمّل الأفراد المنتمين إليه مسؤوليّات عامّة مضافةً إلى المسؤوليات الخاصة. ولذلك فإنَّ من غير المقبول في الإسلام أن يكتفي المرء بالالتزام بالواجبات وبترك المحرمات مما يضمن به الخير والفلاح لنفسه، بل إنَّ الواجب الديني يحتّم عليه أن يسعى إلى هداية غيره من أبناء المجتمع إلى الالتزام بما يوفر سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ومثله ما تراه في تعاليم الدين من الدعوة إلى نصرة المظلوم وإعطاء المحتاج وإغاثة الملهوف وكفالة اليتيم وغيرها من مظاهر التآزر الاجتماعي التي يحث عليها الدين وبقوة، فهي كلها تعتبر مؤشرات على دعوة الإسلام الإنسان المسلم إلى حمل هموم عامة مضافة إلى همومه الشخصية، كهموم العائلة والمجتمع والبيئة المحيطة والوطن، بل وأحيانًا هموم البشرية بأسرها.

ومن هنا فالدعوة الإسلامية إلى حمل هموم الآخرين

كما أنها ثابتة في المجالات الاجتماعية والثقافية والأمنية والسياسية والاقتصادية، فإنها ثابتة أيضًا في المجالات الأخلاقية، وذلك بالحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمن مختلف الأطر الاجتماعية.

فالنقطة الثانية، إذًا، تتمحور حول كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤوليةً عامّةً.

ثالثًا: إن مصاديق المعروف تندرج وفق مستويات تتفاوت من حيث الأهمية، لتفاوت مستوى تعلق الإرادة الإلهية بها، وذلك أمر واضح لا يخفى على العقلاء، فما أوردناه من أمثلة لا يندرج كله في مستوًى واحد.

وكذلك حال المنكر، فليست كل مصاديقه على مستوى واحد، بل تتفاوت من حيث الفساد، فيوجد الفاسد والأفسد، كما يوجد في المعروف المهم والأهم.

ومثاله: أنك تجد إكرام الضيف وإنقاذ الغريق كلاهما من مصاديق المعروف، إلا أنَّ من الواضح أنَّ بينهما تفاوتًا من حيث الأهمية. وكذا في المفاسد، فإنَّ السرقة والقتل

كلاهما من المعاصي المنكرة، إلا أنَّ الواضح أنَّ القتل أشد فسادًا من السرقة.

وبالتالي فإنَّ على من يسعى في هذا المسلك أن يدرك تراتبية مصاديق المعروف بين المهم والأهم وتراتبية مصاديق المنكر بين الفاسد والأفسد، وهذه هي الإشارة الثالثة.

ولأجل هذا الاعتبار نجد في كتب الفقه أنَّ الأدلة الشرعية المتوفرة إنما تشير إلى أنَّ الله سبحانه وتعالى فرض أعلى مستويات الاحتياط في الدماء، ثم المستوى الثاني في الأعراض، ثم المستوى الثالث في الأموال، فجعل ما يتعلّق بالدماء – أي بقتل النفس المحترمة – أهم موارد الاحتياط، ومن بعده في الدرجة الثانية ما يتعلق بالأعراض ومن بعده ما يتعلق بالأموال. فهذا التدرّج والتفاوت بين المهم والأهم يتجلى صريحًا في الجانب الفقهي والشرعي.

رابعًا: أنَّ وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما ذكر الفقهاء في كتبهم، لها شروطها. فبرغم كونها واجبةً

شرعًا، إلا أنَّ وجوبها معلّق بجملة شروط ما لم تتحقق لم تجب. ومثلها في ذلك ككثير من الواجبات التي ربطها الله سبحانه بشروط معينة، كصيام شهر رمضان مثلًا، فإنَّه لا يجب على المريض الذي يضر به الصيام بل يسقط عنه أداءً ويبقى عليه القضاء ضمن تفاصيل معينة. أو الحج، مثلًا، فإنَّه لا يجب إلا على من استطاع، والاستطاعة تشمل كافة الجوانب المالية والأمنية وغيرها، فالحج إذًا واجب معلّق بشروط.

وهكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهما واجبان لكن لهما شروطًا مذكورةً في الكتب الفقهيّة.

خامسًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على وجوبهما، هما من الواجبات الكفائية، والواجب الكفائي هو ما لا يجب على فرد بعينه القيام به، بل يسقط إذا أداه أحد أو بعض المؤمنين، أما إذا تخلّف الكل عن القيام به فإن الكل سيُسأل ويُحاسب يوم القيامة على التخلّف عن تأدية واجب كان ملقًى على عاتق الجميع.

مثال عليه المقاومة والدفاع عن الأرض والأعراض

والأنفس والأموال والكرامات في حال التعرض لهجوم عدو، فهو واجب كفائي على الجميع، لو قام به جماعة وكان ذلك كافيًا لدفع العدو سقط التكليف عن الباقي، ولكن لو لم يكن كافيًا فإنَّ كل الباقي سيتحمل المسؤولية يوم القيامة. وهذا معنى الواجب الكفائي.

سادسًا: وهي النقطة الأهم، والتي تشكل المدخل إلى القسم الثاني، وهي أنَّ الأصل في كل زمان ومكان وفي كل مجتمع وبيئة، بمعزل عن تفاصيلها، أنَّ الأمر واجب بكل معروف، لا هذا المعروف يجب الأمر به وذاك المعروف لا يجب الأمر به. وأنَّ النهي عن كل منكر واجب، فكل منكر يجب النهي عنه.

نعم، قد تتوفر في بعض الأحيان الشروط، لكن القدرة والإمكانية لا تكون متاحةً للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر، فيجد المرء أنَّ بإمكانه أن يأمر بشيء من المعروف لا كل المعروف أو ينهى عن شيء من المنكر لا كل المنكر، فالمفروض هنا – وكما سبق وبيّنّا – أن يراعى

مبدأ الأهم فالمهم، فالمعروف الأهم هو ما يجب العمل عليه، والمنكر الأفسد هو ما يجب العمل عليه.

وهـذه مسألة في غاية الدقة، ذاك أنَّ بعضنا قد يشغل نفسه، نتيجة سوء التقدير، بالنهي عن منكرات صغيرة ومحدودة التأثير في بيئتنا ومجتمعاتنا متجاهلًا ما هو أفسد وأخطر مما يمسّ وجودنا وأمننا وحياتنا وحياة الناس. ولذلك فما ينبغي عند عدم وجـود الإمكانية للعمل على الأمر بكل المعروف والنهي عن كل المنكر أن نبدأ بالأهم فالأهم وبالأفسد فالأفسد.

وقد سبق أن ضربنا لذلك مثلًا عن إنقاذ الغريق وإكرام الضيف. فلو فرضنا وجود شخص يغرق في النهر، فلا يصح ترك إنقاذه بحجة الانشغال بإكرام الضيف، فحتى لو بنينا على وجوب إكرام الضيف، ففعله في هذه الحالة حرام وفاعله مأثوم، لأنَّه ترك ما هو أهم وأوجب في سبيل المهم.

وقد يتردد الأمر أحيانًا بين أن يترك الإنسان عملًا منهيًّا عنه أو أن يأتي بمعروف أهم بكثير من ترك هذا المنكر، كأن

نفرض مثلًا وجود شخص يغرق في بركة لا يمكن الوصول إليها إلا بعبور أرض مملوكة لشخص لا يجوّز لأحد دخول أرضه إلا بإذنه، ومعلوم أن التصرف بمملوكات الآخرين دون إذنهم محرم شرعًا، فالحكم الشرعي في هذه الحالة هو أنَّه لا يجوز للإنسان انتظار تحصيل إذن مالك الأرض، لأنَّ ما يتوقف على ارتكاب هذا الفعل (العبور دون إذن، والذي هو في ظاهره منكر) هو عمل أهم بكثير وهو إنقاذ نفس بشرية، وهذا هو حكم الدين.

بما مر نكون قد أتممنا الكلام في القواعد النظرية والفقهية التي تحكم مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد أحببت أن أطرح هذه النقاط في القسم الأول لعدم وضوح بعضها عند البعض، فقد يظن بعض الناس مثلًا أنَّ واجبنا الشرعي هو النهي عن كل المنكرات في مجتمعنا، الصغيرة والكبيرة والشخصية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والأمنيّة وغيرها ومواجهتها دفعةً واحدة. إنَّ ذلك لصحيح لو كنا قادرين، ولكن مع عدم القدرة فيجب ترتيب الأهم والمهم. وهذا ما

نعبّر عنه في الأدبيات المعاصرة بمبدأ ترتيب الأولويات، أي عدم الانشغال بما هو مهم وترك ما هو أهم، وعدم محاربة ما هو فاسد وترك ما هو أفسد.

ثانيًا: المعالجة التطبيقية لمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أما فيما خص الكلام في الجانب التطبيقي، فإننا سنعالج هذا الجانب بالوقوف على بعض الشواهد التاريخية والمعاصرة، وأولها حركة الإمام الحسين عليه السلام الذي اعتبر – كما ورد في النص الوارد عنه في التمهيد – أنَّه إنما خرج ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

عندما خرج الحسين عليه السلام سنة 60 للهجرة من المدينة فإنَّ الفساد الأخلاقي كان مستشريًا فيها، كما وفي مكة، بل كان – كما ورد في كتب التاريخ – حتى والي المدينة رجلًا فاسدًا، وكان ذلك نتيجة مخططات وإدارة وأمور متعمّدة وأخرى غير متعمّدة لن أدخل في تفاصيلها الآن، ولكن الحسين عليه السلام ورغم كل ذلك ذهب إلى ما هو

أهم وإلى مواجهة ما هو أفسد وأخطر وأكبر، حيث كان التهديد الأقوى في زمانه هو يزيد نفسه، بما يملك من مواصفات وأهداف ومشروع.

فقد وجد الحسين عليه السلام في سلطان يزيد وفي مشروعه وأهدافه وفي تمكين يزيد من قيادة الأمّة ما هو الأفسد على الإطلاق، فخرج ليواجه هذا الأفسد، وليحارب هذا المنكر، ولينهى عنه، وكانت البداية رفض البيعة، حيث اعتبر عليه السلام البيعة ليزيد من أشد المنكرات في ذلك الزمان فرفضها ودعا الناس إلى تركها، لما ستؤدي إليه من خطر كبير على الإسلام وعلى الأمّة.

وبملاحظة النقاش الذي روي بين الإمام عليه السلام وبين والي المدينة حين طلب منه البيعة ليزيد، نجد أنَّ الحسين عليه السلام أجاب عندها من ضمن ما قال: «وعلى الإسلام السلام إذا بُليت الأمّة براعٍ مثل يزيد»، وفي هذه العبارة مؤشر قوي، فلم يقل على الصلاة السلام، ولا على الصوم أو الحج أو هذا المعروف أو ذاك أو على

النهي عن المنكر السلام، بل على الإسلام السلام، بما يحمله من قيم ومعانٍ ومفاهيم وأحكام.

إذًا، فهو ذهب لمواجهة ما هو أخطر وأفسد.

وقفةٌ على أحداث الحقبة المعاصرة

وعندما نأتي إلى بعض أحداث واقعنا المعاصر، كتجربة المقاومة في لبنان عام 1982م مثلًا، عندما اجتاحت إسرائيل واحتلت ما يقرب من نصف الأراضي اللبنانية، وكان من الممكن أن تأخذ النصف الآخر، مع ما كان لها من الأهداف – والتي نذكرها دائمًا – فيما خص المقاومة الفلسطينية والقضية الفلسطينية، ولبنان ومستقبله، والنظام السياسي في لبنان، والقرار السياسي في لبنان، واتفاقيات الصلح مع لبنان، والسيطرة على لبنان، إلى آخره.

ففي حين قد يجب على الشباب المؤمن الملتزم اليوم أن يوجه بوصلة سعيه وجهده نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الجوانب العبادية والأخلاقية والمسلكية كدعوة الناس إلى المساجد والإصلاح بين المتخاصمين

والنهي عن القمار وتعاطي المخدرات وفعل الفواحش، وهذه مسؤولية شباب اليوم، فقد كان التشخيص وقتها أنَّ أخطر منكر يجب دفعه هو الاحتلال.

إنَّ سيطرة إسرائيل على أرضنا وخيراتنا وسيادتنا، وتحكمها بدمائنا لتسفكها، وبأموالنا لتنهبها، وبكراماتنا لتهتكها، وبرجالنا ونسائنا لتذلّهم وتزجّ بهم في السجون، كان هو أفسد المنكرات، وأشد ما ينبغي أن تتجه إليه أولوية النهي والمواجهة والتصدي.

ولأجل ذلك، فإننا كنا ولا نزال حتى اليوم نتحدث عن أولوية المقاومة، حيث إننا نعلم أنَّ في بلدنا مفاسد كثيرة ينبغي مواجهتها، ولو سعينا إلى مواجهة كل هذه المشاكل والمفاسد فإن ذلك سيؤدي بنا إلى مواجهة مع الأغلبية الساحقة، ولن يتسنى لنا عندها تذليل شيء من تلك المشاكل، ما يحتم علينا ترتيب أولوياتنا والعمل وفق هذه الأولويات.

ومن أعظم المنكرات في منطقتنا، أيضًا، انتشار السيطرة الأميركية، كما حصل فعلًا لعشرات السنين،

السيطرة على بلادنا، وعلى قرارنا السياسي، وعلى أنظمتنا السياسية، وعلى نفطنا، وعلى خيراتنا، وتحوّل أسواقنا إلى أسواق استهلاكية لسلاحها وبضائعها – وخير شاهد ما نراه من شراء السلطات السعودية في السنوات القليلة الأخيرة خلال عدوانها على اليمن من السلطات الأميركية أسلحةً وذخائر تبلغ قيمتها عشرات بل مئات مليارات الدولارات – وسيطرتها أمنيًا على بلادنا لتملأها فتنًا وحروبًا من خلال الاختراقات والمحاور. فهذا من أعظم المنكرات التي يجب مواجهتها.

وقبل الخوض في بعض المنكرات الجزئية والتفصيليّة التي أود أن الفت إليها، أذكّر بقول الإمام موسى الصدر – أعاده الله بخير ورفيقيه – في تلك الأيام: إسرائيل شرّ مطلق. وكذا الحال اليوم، فلو أردنا التفتيش عن المنكر المطلق والشر المطلق، فهو إسرائيل.

وبقول الإمام الخميني رضوان الله عليه الذي كان يقول: إسرائيل غدّة سرطانية. فإسرائيل أمّ الفساد، ولو أراد أحد محاربة الفساد فهي رأسه، فمن يحارب فسادًا

هنا أو هناك ويتخلى عن مواجهة إسرائيل، هو يحارب الأطفال الصغار ويترك أمهم، لأنها هي أم الفساد.

ومن ورائها تقف أميركا، التي تعتبر هي الشيطان الأكبر. ومن عجائب الدهر اليوم أن أمريكا هذه تدعي محاربة الإرهاب، في حين يعلم كل بصير أنها هي أكبر داعم للإرهاب، حيث ترعاه وتقدم له عناصر القوة وتحميه بشكل أو بآخر، وتستخدمه في قتل الناس وتدمير الجيوش وتفكيك المجتمعات.

إذًا، علينا اليوم أن نشخّص وبدقة مصاديق المنكر، ومصاديق الفساد العظيم الموجود في هذه الأرض، وعلينا أن نواجهه ونحاربه، وفي القمة تأتي السياسات الأميركية، ويأتي المشروع الصهيوني.

ومن لم يكن هذا تشخيصه، فإنه سيشغل نفسه في صورة مزورة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما نجد في المملكة العربية السعودية مثلًا، والتي تضم لجانًا معنيةً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنَّ مهامها محصورة بمراقبة منكرات من قبيل قيادة السيدات

للسيارات حيث يعاقبونهن على ذلك، ومن قبيل عدم إغلاق التجار لدكاكينهم وقت الصلاة، حيث يعاقبونهم عليه؛ مع أن مال البلاد ونفطها وقرارها السياسي كله في يد وتصرف السلطة الأميركية. فليت شعري عن أي منكر ينهى من كان قراره وقواته وجيوشه كلها طوع أمر الشيطان الأكبر؟ أويسمى ذلك بالأمر بالمعروف والنهي بالمنكر؟ إن ذلك ليس إلا تضليلًا وتزويرًا وتحريفًا لحقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والنتيجة التي أريد أن أصل إليها وأثبّتها أننا معنيون بترتيب الأولويات.

الأخطار الداخلية الحافّة بالمجتمع اللبناني

ما سآتي على ذكره في التالي هو من بين أبرز الأولويات التي ينبغي العمل عليها في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد قاتلنا في المقاومة، مع غيرنا من الفصائل، منذ العام 1982م لتحرير أرضنا من الاحتلال الذي اعتبرناه

أكبر المنكرات، وما زلنا حتى اليوم نرابط في قرانا الأمامية وعلى مقربة من الحدود إلى جانب الجيش اللبناني والقوى الأمنية والرسمية في مواجهة أي عدوان أو تهديد أو اختراق إسرائيلي، وكذلك من جهة أخرى، وعلى الحدود الشرقية في البقاع أيضًا، قاتلنا وواجهنا الخطر التكفيري الإرهابي ولا نزال حتى يومنا، وذلك كله لأجل حماية أهلنا وشعبنا وبلدنا وكرامتنا، وقدمنا في هذا السبيل آلاف الشهداء وآلاف الجرحى، وهذان واجبان علينا، بل من أعلى مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولكن، وفي الوقت الذي تُحمى فيه الحدود الجنوبية والحدود الشرقية من أيّ إرهاب أو عدوان، وفي الوقت الذي تُبذل فيه على مدار الساعة مساعٍ أمنية دؤوبة رسمية وشعبية لمواجهة أي عمل إرهابي ممكن، تتفشى في مجتمعاتنا الداخلية مظاهر لا تقل خطرًا، وهي مخاطر مدمرة لمجتمعنا، ولست أقصد هنا بيئةً خاصة، بل أتحدث عن الشعب اللبناني ككل، بل عن كل المقيمين على الأرض اللبنانية، سواء كانوا لبنانيين أو لاجئين

فلسطينيين أو مهجرين سوريين أو أجانب مقيمين على أرضنا، مجموع الناس الموجودين على الأرض اللبنانية، هم يواجهون أخطارًا لا تقلّ عن أخطار الحدود الجنوبية والحدود الشرقية، حيث تحفّ بأبناء وطننا مفاسد كثيرة ينبغي مواجهتها قدر المستطاع.

ومن بين هذه الأخطار سأتناول هنا ملف المخدرات.

فبينما ينشغل اللبنانيون ببعض الشؤون السياسية والمعيشية، ينتشر في بلادنا خطر كبير يعلم الجميع بوجوده ولكن لم يسلّط عليه الضوء جيدًا، يُخشى أن نستيقظ بسببه يومًا على كارثة عظيمة، هو موضوع المخدرات.

وبخطر المخدرات أقصد:

1 - تجارة وترويج المخدرات.

2 - تعاطي المخدرات.

وأقول بدايةً، لا يوجد أي نقاش شرعي أو ديني أو عقلي في خطورة مسألة المخدرات، ولا يوجد بين الناس من يشكك في ذلك، وهو ليس مبحثًا من مباحث الحلال

والحرام فقط، بل إن الإسلام، والمسيحية، واليهودية، والبوذية، والهندوسية، واللادينية، تُجمع على خطورة أمر المخدرات. وبعبارة أدق، يوجد اليوم إجماع بشري عقلائي على أنَّ هذا ملف خطير ومدمّر ويجب أن يواجَه. ولذلك توجد في كل الدول قوانين تمنع وتجرم وتعاقب كل من يقحم نفسه في ملف المخدرات، بل وتشكلت في العالم أجهزة أمنية ضخمة مختصّة فقط بمحاربة تجارة المخدرات وزراعتها، وترويجها، وصناعتها وما شاكل.

وإجماع الأديان والعقول البشرية على خطورة أمر المخدرات وعلى كونها من أعظم المفاسد التي يواجهها أي مجتمع بشري يكفينا مؤونة إثبات ذلك بالأدلة الشرعية أو العقلية.

ومن هنا، فإنَّ من الضروري اليوم إلقاء الضوء على هذا الأمر.

وفي تفصيل الأمر نقول: إنَّ لدينا بعض الإحصاءات حول أعداد المدمنين والمتعاطين ضمن الأراضي اللبنانية، ولا نبالغ إن قلنا إنَّ نسبة المدمنين من مجموع

عدد السكان المقيمين في لبنان هي نسبة عالية جدًا، والأمر نفسه لو لحظنا نسبة المتعاطين الذين لم يبلغوا مرحلة الإدمان، والأرقام الموجودة تؤشر على مشكلة ضخمة وخطر مرعب يجتاح وطننا. وبرغم كل الجهود التي تبذلها مؤسسات الدولة وأجهزتها المعنية مشكورةً، من العمل على مصادرة شحنات المخدرات المهرّبة واعتقال بعض تجار المخدرات الكبار والقبض على بعض المدمنين، لكن ذلك كله لا ينفي الخطورة التي تشير إليها أرقام الإحصاءات مع الأسف، والأسوأ أننا لا نلحظ أي مؤشر على تحسّن الأوضاع، بل الأرقام هذه في تصاعد، والحال من سيئ إلى أسوأ، وخصوصًا في جيل الشباب البالغ ما بين 18 عامًا و 30 عامًا.

قد يكون هذا الخطر نتيجةً طبيعيةً لوجود بعض الطامعين الذين يستغلون هذه الحاجة ليتاجروا بهذه البضاعة التي يجني المتاجر بها أرباحًا كبيرةً، وهذا من الأمور الواردة والمعقولة، إلا أنَّ هناك احتمالًا آخر لا ينبغي الغفلة عنه، وهو أن تكون هناك جهات محددة تخطط

لنشر هذه المخاطر في بيئتنا، من أجهزة أمنيّة ومخابراتية تابعة لجهات معادية. مثلًا، في خصوص المخيمات الفلسطينية، فإنّك لو أردت تدمير المخيم – وهو جزء من تدمير القضية الفلسطينية – فمن أنجع الوسائل أن تضرب قاعدتها الشبابية عبر الترويج للمخدرات داخل المخيمات، فلماذا نستبعد أن يكون الموساد وراء ذلك؟

والطرح نفسه يسري لبيئتنا ومجتمعنا، لأن من المعلوم أن عدونا لا يستثني أية وسيلة تمكنه من تدمير مجتمعنا، وما يميز هذه الوسيلة أنها تكفيه عناء خوض حرب عسكرية على بلادنا، بحيث يجنب نفسه المخاطر التي قد تترتب على فتح جبهة عسكرية، من خسائر بشرية ومعنوية وقصف لمدنه، فهي طريقة سلسة ينخر فيها لب مجتمعنا ويدمّر كل خطوطنا الخلفية، وهي أهلنا وشبابنا وشاباتنا الذين يعتبرون هم العماد الحقيقي للوطن، بجيشه ومقاومته ومؤسساته وأمنه واقتصاده...

وهذا ما نجده اليوم، حيث إنَّ الشريحة الأكبر المستهدفة أو المتورطة، كما أوضحنا سابقًا، هي شريحة

الشباب. وما يؤسف أكثر أنَّه ضمن شريحة الشباب يظهر أنَّ شريحة الطلاب هي صاحبة النسبة الأعلى، طلاب الجامعات والثانويات والمدارس المتوسطة.

واللافت أنَّ صنوف المخدرات المختلفة، من الحبوب إلى نبتة الحشيش وغيرها، وبأشكال مختلفة وألوان مختلفة، تُقدّم وتُباع بأسعار زهيدة، وهذا ما يؤكّد احتمال المؤامرة والتواطؤ.

ولا يتوهمنّ متوهم أنَّ الكلام في خصوص هذه المسألة يطال الحريات الشخصية، متذرّعًا بأنَّ الإنسان حر في تعاطيه المخدرات أو ترويجها، لأنَّ شيئًا من الشرائع البشرية لا يقر له هذا الحق، لا الدين ولا القانون ولا العقل، بل كلهم مجمعٌ على سوء هذا الأمر وعظيم ضرره على الفرد من جهة والمصلحة العامة من جهة أخرى.
أما على الصعيد الفردي، فالمتعاطي إنّما يخسر نفسه، ويدمّر عقله وقلبه وعواطفه وأحاسيسه، وجميعنا يدرك حقيقة معنى الإدمان، ومصير الإنسان المدمن، ولا داعي للتفصيل في ذلك؛ وأما على الصعيد العام، فإنَّ لهذا

الفعل آثارًا مدمرة على الوضع العائلي للمدمن، وكثيرٌ من حالات الطلاق الموجودة اليوم كان سببها المخدرات، ما أدى إلى انهيار كثير من العائلات وضياع أطفالها، وله أيضًا آثاره القاتلة على المجتمع، حيث يتحول المدمن في كثير من الأحيان إلى أفعال إجرامية أخرى، كالسرقة أو القتل أو الزنى أو غير ذلك. فالإدمان باب لكثير من أبواب الفساد الأخرى. وما ظهر في مجتمعنا في فترة سابقة حول بيع الفتيات، ليس معزولًا عن موضوع المخدرات الموجودة في البلد.

إذًا، نحن أمام ملف في غاية الخطورة، وعلينا جميعًا أنَّ نرفع صوتنا في قباله، كما نرفع الصوت في أي مطلب شعبي نطالب به، لأنَّ خطورته أكبر، والسبب تفشيه في كل المناطق اللبنانية، دون استثناء، نعم يمكن أن تتفاوت النسبة قليلًا بين منطقة وأخرى، ولكن في العموم، الخطر منتشر في كل المناطق، وحتى البلدات والقرى المحافظة دخلت إليها المخدرات.

إذًا، هذا الخطر يعتبر من أكبر المنكرات التي

يجب أن نواجهها، والعمل على مواجهته لا يتنافى مع المسؤوليات الأخرى والتي سبق أن أشرنا إليها، بل هو مدعّم للمواجهات الأخرى، لأننا لو اكتفينا بحماية الحدود وتركنا مجتمعنا عرضةً لهذا الفتك والتدمير، فإنَّه لن يبقى لنا مجتمع للدفاع عنه، ولا نبالغ مهما رفعنا مستوى الوقاية، فإنَّ بعض الدول تحكم على من يرتكب جرم بيع المخدرات أو تهريبها أو ترويجها بالإعدام، وذلك لفداحة هذا الأمر.

ولو أنني أُسأل أيهما أخطر على المجتمع، تكفيري يزرع عبوةً فيقتل 3 أو 4 من شبابنا الأبرياء أو مجرم يدخل الثانوية ليحوّل شبابنا إلى مدمني مخدرات، لقلت إن الثاني أخطر. فالأول باجتيازه السواتر وتسلله إلى داخل بيئتنا إنما يشكل خطرًا محدودًا يمكن ردعه بتعزيز الإجراءات الأمنية، كما أنَّ ضحاياه ارتفعوا إلى ربهم شهداء أبرياء، أما الثاني فخطره لا حد له، وضحاياه سيخسرون الدنيا والآخرة.

المسؤوليات المترتبة لمواجهة هذا الخطر

إذًا، ما هي المسؤولية إزاء هذا المنكر؟

صُنّفت فريضة النهي عن المنكر في الفقه وفق مستويات ثلاثة: باليد، وباللسان، وبالقلب. فأما النهي باليد فهي مسؤولية الحكومة، حيث يعتبر النهي في الفقه مسؤولية الحاكم الشرعي، فالأصح تحميل هذه المسؤولية للجهة التي تدير البلد، بمعزل عن الدخول في تفاصيل حقوقية وقانونية، وليس مطلوبًا من أحد غيرها النهي باليد، بل السلطة هي المعنية بذلك، بأن تعتقل وتداهم وتسجن وتقاضي وتحاكم وتغرّم كل من تثبت له علاقة بهذه الجريمة. ولكن ذلك لا يعني رفع المسؤولية عن عامة الناس، فليست السلطة وحدها معنيةً، بل نحن أيضًا معنيون، كشعب أو كمقاومة، بالنهي عن هذا المنكر، وذلك بالقلب واللسان.

وليس الكلام هنا على نحو الاستحباب، بل هو واجب شرعي لا ينبغي التخلّف عنه، وإلا فإننا سنُسأل عنه يوم القيامة.

فعلينا، بدايةً، أن نرفع أصواتنا جميعًا مطالبين الدولة بتحمّل مسؤوليتها على أتم وجه، ولا ينحصر ذلك بواجبها الأمني فقط، بل المعالجة الحقيقية تقتضي وضع خطة متكاملة، تبدأ من مسألة تأمين الزراعات البديلة – ولا يذهبنّ الوهم إلى أنني أعتبر غياب الزراعات البديلة يشكل مبررًا شرعيًا أو قانونيًا أو أخلاقيًا لزراعة المخدرات – إلى ضبط أوضاع المدارس، إلى التوجيه والتثقيف على مختلف المستويات الإعلامية والتربوية، إلى تحديد مسؤولية السلك القضائي، ثم إلى الشق الأمني، أي خطة شاملة ومحكمة ومدروسة تتناول كل المستويات. ولا يحتمل هذا الأمر أي تأجيل أو تسويف. وبهذا تتعلق مسؤولية الدولة.

أما مسؤوليتنا المباشرة، نحن عامة الشعب، فإنَّ علينا مسؤوليةً تجاه تجار المخدرات ومروّجيها وأخرى تجاه شبابنا وأولادنا الذين يتورطون في تعاطي المخدرات.

فأما تجاه تجار ومروجي المخدرات، فالمسؤولية الأولى أن ننكر فعالهم بالقلب، أي أن نثبّت في فهمنا

وثقفاتنا أنَّ تجارة المخدرات وترويجها وزراعتها هي أمور منكرة لا تعود علينا إلا بالفساد، وأنها مما يغضب الله عزّ وجلّ، ومما يرفضه الدين والعقل، وهذا معنى الإنكار بالقلب. وأهمية هذا الجانب أنَّ غيابه قد يؤدي بالمجتمع مع تعاقب الأزمنة إلى تحول هذه الارتكابات إلى أمور طبيعية، فتصبح تجارة المخدرات واحدةً من التجارات السائدة التي اعتاد الناس وجودها في بيئتهم، كتجارة الألبسة أو المواد الغذائية.

ثانيًا، الإنكار باللسان. وذلك بأن تعمد كل فئات الشعب، من عامة الناس إلى أساتذة المدارس والجامعات إلى علماء الدين إلى قادة وفعاليات الأحزاب السياسية إلى غيرها من الفئات، أن يعمدوا إلى نهي هؤلاء التجار من أبناء عائلاتهم وقراهم ومناطقهم عن فعالهم بكل وسائل الوعظ والزجر الممكنة، أن يوضحوا لكل تاجر أن فعاله تقتلنا وتحرق بيئتنا وتدمر بنى مجتمعنا، وأن ما يقوم به هو أخطر علينا من كل مساعي العدو الإسرائيلي والتكفيري، ومن كان يخاف

على نفسه من مواجهتهم ونهيهم فليستند إلى من لا يخاف من أصحاب النفوذ والسلطة والسطوة. ولسنا نطلب هنا إلا ما يرضي الله ويحفظ بيئتنا، فهل تقوم هذه الفعاليات الشعبية بهذا الدور؟ لا علم دقيقًا عندي حول نسبة التوجه نحو هذا النهي باللسان، ولكن المقطوع عندي أن حجم الجهد المبذول في المدن والقرى والأحياء غير كافٍ.

وعلى صعيدي الشخصي، فإني سأعتبر هذا واجبًا شرعيًا ملقًى على عاتقي، وأخاطب هنا كل تاجر مخدرات وكل مروّج في لبنان، أخاطبهم أولًا بالمنطق الإنساني والأخلاقي والديني والوطني، أخاطبهم أن كفاكم قتلًا وتدميرًا لشبابنا وأهلنا وقرانا ومدننا وأمننا واقتصادنا وأخلاقنا، وأن اتقوا الله وخافوه، وإن لم يكن لكم دين فكونوا أحرارًا وأصحاب قيم أخلاقية، ليكن لكم حد أدنى من الحس الإنساني، ألا ترون أثر بضائعكم المدمر في مجتمعكم وأهلكم.

وعندما نتكلم وننهى باللسان، فإنَّ علينا أن نشرح

لهم تداعيات هذا الموضوع ونبيّنها ونوضحها، وأن نطلق استنكارًا عامًا تجاه هذه القضية.

والأهم من الكلام، في هذا الصدد، هو تحصيل النتيجة، أي أن يسمع هؤلاء خطابنا ويتّعظوا، حيث إنَّ بعض هؤلاء قد يعيده الإرشاد إلى نفسه فيستغفر الله ويتوب عن أفعاله، وهذه هي الغاية الحقيقية والشرعية للنهي عن المنكر، ومن تجاوب فمن المفروض العمل على إيجاد حلول ومخارج وتسويات تؤخذ بالحسبان، أما البعض الآخر الذي لا يتعظ، لما يجده من منافع تجارية تعود عليه من هذه التجارة، فيفترض أن يُلجأ معه للنهي باليد.

ومما يمكن اللجوء إليه أيضًا في نهي هؤلاء هو المقاطعة الاجتماعية، وهذا مما يقع على عاتق عامة الناس أيضًا، ومما أطالب به وأشدد عليه. فمن كان من التجار المعلوم تورطهم في هذه الجريمة تنبغي مقاطعته وعدم استقباله أو الترحيب به في بيوتنا ومراكز عملنا، فضلًا عن زيارته وقصده، بل ينبغي عدم التبسم في وجوههم وعدم

الاجتماع معهم في مجلس واحد والامتناع عن المشاركة في مناسبات أفراحهم وأحزانهم، حتى ولو كانوا إخوانًا لنا. ولا يؤدي هذا النوع من المقاطعة الاجتماعية إلى أي نحو من أنحاء الفتنة أو الاعتراك، وهو غير مكلف ولا نحتاج فيه إلى معونة السلطة، فإن لكل إنسان الحرية بالمقاطعة الاجتماعية لهؤلاء.

أما واقع الحال اليوم في بلدنا، فإن شريحة تجار المخدرات تعتبر، ومع الأسف الشديد، شريحةً اجتماعيةً محترمة، بل وأصبح بعض هؤلاء من وجهاء قراهم ومناطقهم، يدفعون المال ويقدمون المساعدات ويلجأ الناس إليهم لحل المشاكل الاجتماعية. وهذه كارثة كبيرة لا يعلم أحد فداحة ما قد نصل إليه بسببها.

قد يذهب البعض من أهلنا ليقول إنَّ علينا أن ننفتح على كل الشرائح الاجتماعية لأنَّ أولويتنا هي المقاومة، وهي تحتاج إلى دعم الشرائح الاجتماعية كافة. وردًا على ذلك أقول: هذه الشريحة عدوّة للمقاومة ولمجتمع المقاومة ولثقافة المقاومة وقيم المقاومة، وهذه الشريحة

خائنة لدماء الشهداء، وللجرحى الموجودين بيننا، وخائنة لقيمنا وأخلاقنا، ومدمّرة لنا ولبيئتنا ومجتمعنا. من قال بأن المطلوب أن ننفتح عليهم؟ بل المطلوب مقاطعتهم وعزلهم اجتماعيًا. وعندما يُعزل هؤلاء، كلّ ضمن عائلته وعشيرته وقريته ومدينته، فإنَّ ذلك سيفرض عليهم إعادة النظر حتمًا، لأنَّ الإنسان يعجز عن العيش وحيدًا.

ولتوضيح الفكرة، أطرح هنا مسألة العمالة لإسرائيل كنموذج تمت معالجته على هذا النحو، فقد كانت العمالة في فترات ماضية في لبنان وجهة نظر، وخيارًا سياسيًا، ولكنها تحولت مع الوقت، ونتيجة تبدلات قانونية وقضائية وثقافية وإعلامية وسياسية، إلى جرم يعاقب عليه القانون، وبات العميل منبوذًا في مجتمعه وعائلته، بل بات مصدر خجل لأهله وذويه. أما في واقعنا، فإن عوائل تجار المخدرات لا يشعرون بأي خجل لأن مجتمعهم لا يفرض عليهم هذا الإحساس. ومن المضحك المبكي ما وقع في فترة ماضية كانت تنكشف فيها مجموعات العملاء المرتبطة بشبكات أمنية خارجية، حيث داهمت

الأجهزة الأمنية بيوت أحد العملاء في الضاحية الجنوبية واعتقلته على عيون الناس فما كان منه أثناء إخراجه من بيته إلا أن صاح يقول إنَّه تاجر مخدرات وليس بعميل، في محاولة منه لتبرئة نفسه أمام الناس، وهذا يوضح أنَّ تجارة المخدرات ليست في الوعي الاجتماعي العام من الخطايا العظيمة.

هذا فيما خص مسؤوليتنا تجاه التجار ومروّجي المخدرات.

أما تجاه الأفراد، فالمسؤولية ملقاة بالدرجة الأولى على العائلات، فعلى الأب والأم التنبّه لمسلك أبنائهم، لأن مرض المخدرات أصبح اليوم متفشيًا وبقوة في أغلب المدارس، ومسؤوليتهم مضافة لمسؤولية وزارة التربية والأجهزة الأمنية، فكل له دوره. وإنَّ دور الأهل مركزي، سواء في مرحلة ما قبل الإدمان أو ما بعده، فقبل الإدمان يكون دورهم الالتفات الدائم لمسلكه والسعي إلى تربيته على الأصول الأخلاقية والدينية المطلوبة، وبعد الإدمان يكون دورهم، في حال اكتشافه، بمعاونته على الخضوع للعلاج

المطلوب، إذ إنَّ للإدمان أطرًا علاجيةً متوفرةً في بلادنا، فلا ينبغي أن يسلم الأهل لفكرة أنَّ ولدهم ميؤوس منه، بل هم مسؤولون عن علاجه، وكذا سائر أفراد عائلته وبيئته.

وفي المستوى نفسه، تقع مسؤولية كبرى على مدراء المدارس وأساتذتها، لأنَّ عليهم التنبه لأوضاع طلابهم الذين هم أمانة بين أيديهم، ولا ينبغي التسامح في هذا الإطار أو غض النظر عن أي شبهة.

وكما الأهل ومدراء المدارس، فإنَّ كل الأطر الفاعلة في البلد معنية بالوقوف إلى جانب المبتلين من أولادنا، والعمل، كل ضمن صلاحياته، على اتخاذ الإجراءات والتدابير اللازمة دونما تسويف أو تأخير.

وكما سبق وذكرت، فإنَّ هذا الأمر يدخل ضمن سلّم أولوياتنا ولا يتنافى مع الأولويات الأخرى، بل هذا عامل تقوية وتحصين للساحات الأخرى. ولذلك، فأنا أتمنى من الجميع أن يعيدوا النظر في وضع هذا الخطر موضع اهتمامهم والسعي بكل الوسائل إلى مواجهته، وأزيد على مجرد التمني لأقول إنَّ هذا واجب، وعلينا أن

نعمل على تحقيقه جميعًا دونما تسامح أو خجل من أي عشيرة أو عائلة أو جهة، لأنَّ الله ورسولهِ والأئمةﷺ أولى أن نخجل منهم، والشهداء وعوائلهم والجرحى وعذاباتهم والمجاهدون الحاملون دماءهم على أكفهم أولى أن نخجل منهم، وذلك يقع في سبيل تحصين بلدنا ومجتمعنا وأخلاقنا وبيوتنا وأمننا.

وختامًا، إنَّ من أبرز المفاهيم التي يمكن تعلمها من حركة الإمام الحسينعليه السلام في لياليه وأيامه مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي تفتح بدورها الأمة على فضائل أخرى، كالصدق والنصح للأخ والحرص على الإنسان وعلى الأوطان ومواجهة الفساد والإيثار والتضحية والصبر وغير ذلك. نسأل الله سبحانه أن يوفقنا لإفشاء الصلاح في وطننا، ولمعالجة هذه الآفة وغيرها بالتعاون بين الدولة والشعب، الذي يعتبر (التعاون) من المعادلات الذهبية التي نستطيع انطلاقًا منها معالجة هذا الموضوع وإتمامه، فلا يكون وطننا لبنان مقرًا للمخدرات ولا ممرًا لها، كما يريده البعض، ولكن ذلك يستند إلى تحملنا مسؤولياتنا.

الفصل الخامس

قراءة استرشادية في دلالات
الحراك الحسيني:
في مفهوم الصبر ومتعلقاته

وقفنا في الفصل الأول من فصول هذا الكتاب على الشعار الذي اعتمدناه لإحياء مناسبة عاشوراء لهذا العام، وهو «صبرٌ ونصر»، وتناولنا هناك العنوان الثاني من عناوين هذا الشعار بالمعالجة، وهو عنوان «النصر»، وسنعمد في هذا الفصل إلى معالجة العنوان الأول منه، وهو عنوان «الصبر»، وسنستند في معالجتنا هذه إلى ما كنا قد أوردناه في فصول سابقة.

ذكرنا في فصول سابقة، وهو من الواضحات، أن الله سبحانه إذ خلقنا وأسكننا هذه الأرض فإنه قدّر لنا حياتين، الحياة الدنيا والحياة الآخرة. فأما حياتنا الدنيا على الأرض، فإنه سبحانه جعلها مرحلةً للاختبار والامتحان، امتحان للإنسان كفرد وللبشرية كجماعة، وقد أُدرجت هذه الحقيقة في الأدبيات القرآنية تحت عنوان الابتلاء، الذي

تم تناوله في النص القرآني في موارد عديدة بعبارات مثل يبتلي ويبتليكم ويبلوكم وغيرها، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾[1]، بمعنى أن وجودنا في هذا العالم، وضمن هذه المرحلة من الحياة، هو وجود محفوف بالامتحان والاختبار والابتلاء، ليثبت كل واحد منّا من هو الأحسن عملًا، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2].

فنحن، إذًا، محطّ النظر الإلهي، أعمالنا ومعتقداتنا التي حملناها في الدنيا هي التي ستحدد مصيرنا في الآخرة. وقد زوّد الله سبحانه هذه الأرض بكلّ حاجاتنا الإنسانية، وسخّر كل ذلك لنا وأعطانا حرية اختيار الطريق والمسلك، عقائديًا وفكريًا وثقافيًا وسلوكيًا، كما أعطانا العقل، وهدانا إلى طريق الحق ودلّنا عليه، كما دلّنا

---

(1) سورة هود، الآية 7.

(2) سورة يونس، الآية 14.

على طريق الباطل، قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[1]، أي إنه سبحانه أضاء لنا الطريق وهدانا بالهداية العامّة، ثم إنه بعث لنا الأنبياء والرسل وأنزل علينا الكتب السماوية ووضع لنا الشرائع الإلهيّة التي تنظّم كل تفاصيل حياتنا. وكما أشرت في فصول سابقة، فإنه دلّنا بوضوح على عدوّنا الحقيقي والأساسي، إبليس وجنده، وعلى ما نملكه نحن من نقاط قوة وضعف في دواخلنا، وبعد هذا كله وضعنا أمام التحدي في دار العمل، وقال أروني ماذا تعملون، وأيكم سينجح في اختبار الحياة وابتلائها.

صنوف الابتلاءات الإلهية ومستوياتها

إنّ ما يبتلينا ويمتحننا الله تعالى به يمكن تصنيفه وإدراجه في مجالات وعناوين أهمها:

1. **العنوان الأول: الطاعات**، أي ما أمرنا به من طاعات وما يسمى في الفقه بالواجبات الشرعية كالصلاة

(1) سورة البلد، الآية 10.

والصيام والحج والزكاة والخمس والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فيمتحننا ليرى هل سنؤدي هذه الواجبات؟ هل سنلتزم بهذه الطاعات أم لا؟

2. **العنوان الثاني: المعاصي والذنوب**، كالكذب والغيبة والنميمة وقتل النفس المحترمة وعقوق الوالدين والعدوان والظلم. فيمتحننا إن كنا سنجتنب هذه المعاصي والذنوب أو سنرتكبها.

3. **العنوان الثالث: المصائب**، وما يجري في هذه الأرض على الناس منذ أن هبط آدم وزوجه وإبليس إلى الأرض وحتى قيام الساعة، فالدنيا كما هو معلوم مليئة بالمصائب، والإنسان معرض فيها لأن يُصاب في نفسه، في صحته وعافيته وأحواله وأمواله، أو في ولده وأعزائه وأهله. فيبتلينا ويمتحننا ليرى كيف سنواجه هذه المصائب؟ هل سنسقط أمامها وننحرف بسببها وتتخلّى عن عبوديتنا لله عزّ وجلّ؟ هل سنترك الواجب ونرتكب المعصية لما

ابتُلينا به من مصائب أم أننا سنتحمّل ونصمد؟

4. **العنوان الرابع:** النِعَم، فكل ما أنعم الله تعالى به علينا في هذه الدنيا هو مورد من موارد الابتلاء، والنعم لا تحصى، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[1]، من نعم عامّة ونعم خاصّة. فيبتلينا ليرى هل نشكر أم نكفر؟ أي هل نشكر هذه النعم ونوظفها في طاعة الله وخير الناس وخير الدنيا والآخـرة أم سنكفر بهذه النعم ونعاند بها ربنا ونسيء استخدامها بما يلحق الأذى والضرر بالناس وبنا في الدنيا والآخرة.

فهذه كلها موارد للابتلاء والامتحان والاختبار، والكلام فيها يقع مقدمة للكلام في موضوع الصبر.

وإنه لا شك أيضًا أنّ على الإنسان في هذه الدنيا – لأنها ليست هي الجنّة التي بإمكاننا أن نأكل منها حيث شئنا رغدًا – ومنذ يوم ولادته، وذلك يسري على

(1) سورة إبراهيم، الآية 34.

كل إنسان منذ هبوط آدم، وعبر كل الأجيال، وفي كل زمان، وكل مكان، أقول: على الإنسان أن يعمل ويكدح ويجهد ويشقى للحفاظ على نفسه وصحته وعائلته، في تأمين مأكله ومشربه وأمنه وكرامته وهنائه وسعادته وسلامته وعافيته، فإن كل ما يحتاجه الإنسان – وبرغم ما ذكرناه من أنّ الله وفر له كل ذلك في الدنيا – لا يأتيه دونما جهد وعمل وسعي منه، بل هو يتطلب منه الجهد والبذل والعمل، كما ويتطلب مواجهة كثير من الصعوبات والمعاناة والتحديات، وتقديم الكثير من التضحيات.

في معترك هذه الحياة، وفي خضّم عملنا وسعينا الفطري والغريزي نحو تحقيق حاجاتنا الوجودية، ومع ملاحظة موارد الامتحان التي أشرنا إليها، وكل الصعاب التي تتربص بنا – لأن الطريق كما عرفت ليست يسيرةً بل محفوفةً بصعاب ليس أولها العدوّ المتربّص بنا الذي يقطع علينا الطريق وينصب لنا الكمائن، بالتزيين والوسوسة، والنفس الأمّارة بالسوء، وشهواتنا –، فإن علينا لمتابعة المسير دون انحراف وللتمكن من عبور كل هذه

الصعوبات والتحديات والامتحانات أن نتسلّح ونستعين بمجموعة أمور منها: الإيمان، والعقل، والتقوى، والعلم، والتخطيط، والتعاون بين المؤمنين، والوحدة، ونظم الأمر، والعمل الدؤوب؛ ولكن رأس هذه الأمور كلها، والأساس في المواجهة هي مسألة الصبر.

في تعريف معنى الصبر، وذكر ثماره الدنيوية والأخروية

قد دلّنا الله سبحانه في كتابه على الصبر، واعتبره أول مستعانٍ على مواجهة ما ذكرنا في حياتنا، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1]، وقال في آية أخرى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[2]، والآيتان المذكورتان نص صريح بأنّ الصبر والصلاة هما الركيزتان

(1) سورة البقرة، الآية 153.

(2) سورة البقرة، الآيتان 45 و46.

الأساسيتان اللتان ينبغي الاستعانة بهما في هذا الطريق. فأما الصلاة فالكلام عليها يحتاج موردًا خاصًا فلا ندخل في تناولها هنا، وأما الصبر، فهو ما سيكون مورد كلامنا في التالي.

الصبر لغةً يعني حبس النفس عند الجزع والمصيبة والألم والمواجهة وغيرها من موارد الضغط النفسي، وكفّها في الضيق، بمعنى ضبطها والسيطرة عليها، ولو أردنا التعبير بعبارات أخرى فيمكن التعبير عنه بالتحمّل والانضباط واستيعاب الضغوطات والصعاب، ومحاولة التغلّب عليها نفسيًا.

وقبل الخوض في دلالاته الاصطلاحية، تنبغي الإشارة إلى أن كل ما سنذكره في خصوص موضوع الصبر، وكل ما تحدّثت عنه الآيات والروايات في خصوصه من كونه العون الأساسي في طريق الحياة والموصل إلى خير الآخرة، ليس المقصود به الصبر بمعنى تحمّل الشقاء، كأن نكون مظلومين ومضطهدين مثلًا فنرضى بالظلم ونخنع أمامه أو نكون جياعًا فنتحمل الجوع ولا نسعى إلى تأمين

لقمة العيش، أو تكون أرضنا محتلةً ومعتدى علينا وعلى أعراضنا وأموالنا، فنسكت ونصبر على الاعتداء، أي ليس المقصود الصبر بمعانيه السلبية، بل المقصود هو الصبر بمعنى تحمّل المصاعب والمشقّات والمقاومة النفسية والثبات الروحي أمام جميع المشكلات والأحداث الجزئية أو الكبرى التي تواجهنا كأفراد أو كجماعة. وإذا اتضحت هذه النقطة نقول:

وردت في القرآن الكريم اشتقاقات كثيرة لمادة الصبر، من قبيل يصبر، صبروا، صابرون، صابرين، إلى آخره، وقد تحدَّث القرآن عن هذا العنوان في أكثر من سبعين موردًا. ولو نظرنا إلى فهارس الآيات التي تناولت اشتقاقات مادة «صبر»، فإننا سندرك مدى اهتمام القرآن الكريم بهذه المسألة.

وأما الروايات الشريفة، فقد وردت مسألة الصبر في عدد كبير من الروايات التي لا يمكن إيرادها هنا، وقد اعتبرت الروايات الصبر بمثابة الرأس من الإيمان واعتبرته الأساس في المعونة في كل شؤون حياتنا، الإيمانية وما

هو أعم منها، من الأمور السياسيّة والعسكريّة والأمنيّة والاجتماعيّة، والمعيشيّة وغيرها، فهو أساس النجاح في مطلق شؤون الحياة. وسنقف في التالي على بعض هذه الروايات.

ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»[1]، وهذا حديث قوي الدلالة، يفيد أنّ الإيمان لا يبقى بدون الصبر، إذ بدونه لا يمكن أداء الطاعات ولا الصمود أمام الشهوات والمعاصي وسينهار الإنسان أمام أي مصيبة تصيبه وسيخسر إيمانه.

وورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «الصبر في الأمور بمنزلة الرأس من الجسد فإذا فارق الرأس الجسد فَسُدَ الجسد وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور»[2]، وفي هذا الحديث إشارة إلى ما أوردنا من أنّ الصبر ضروري لا

---

(1) الكليني، الكافي، الجزء 2، الصفحة 88.

(2) محمد الريشهري، ميزان الحكمة، الحديث 10064.

في موضوع الإيمان وحفظه فقط، بل في كل أمور الحياة بما هو أعم من الإيمان فقط، لأن شيئًا منها لا يصلح بدون الصبر، وهذا أمر نشهده في حياتنا اليومية، في شؤوننا العلمية والعملية والسياسية والتجارية والإنتاجية والعسكرية والأمنية، فطالب العلم الذي لا يتحلى بالصبر فإنه لن يفلح في تحصيله وسيرسب في امتحانه، والفئة الاجتماعية التي لا تتحلى بالصبر لا يمكن لها التنعّم بعيش مشترك مع غيرها ممن يخالفها من الفئات حيث ينبغي تحمّل الآخر، وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي تفسُد من دون الصبر ويذهب كل خيرها.

فالصبر، بهذا المعنى، هو الذي يجعل الإنسان قويًا في الحقيقة، والكلام فيه هنا لا ينحصر بكونه فضيلةً أخلاقيةً يطالبنا الله بالتحلي بها كملكة روحية نفسانية نُؤجر على التحلي بها، بل المقصود هو الصبر بمعنى التحمّل والثبات وبمعنى كونه كيفيةً تدفعنا لنكون أقوياء في مواجهة تحديات حياتنا. ولذلك، فإن علماء النفس والاجتماع يؤكدون أن الصبر سلاح أساسي في المواجهات، وبرغم ضرورة توفر

عوامل أخرى مهمة كالذكاء والإمكانيات والكفاءة العالية، إلا أن الصبر أساسها كلها. فلو كان لجيش من الجيوش جبهة قوية، بقيادة خبيرة، وإمكانيات عسكرية ضخمة، مقاتلين كفوئين، لكن لم يكن لدى أفرادها صبر على الحرب ولا طاقة على التحمّل، فلا يتحملون التضحيات، وغير جاهزين للبذل والألم، أي غير جاهزين للصبر على المصاعب، فجيشهم سيهزم وسيخسرون المعركة؛ وفي المقابل لو فرضنا وجود جبهة أخرى قد يكون قادتها أقل ذكاءً وإمكاناتها العسكرية أقل، ومستوى كفاءة مقاتليها أدنى، ولكن صبر جنودها أشد وتحملهم أكبر، فمن الممكن أن يكون النصر لهم والنجاح حليفهم.

وقد أشارت الآيات الكريمة إلى هذا المعنى بمستوييه الفردي والجماعي، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾[1]، فلم يقل إن يكن منكم عشرون مقاتلون، أو عشرون من الفرسان راكبي الخيول، أو إن أردنا التعبير بالمصطلحات المعاصرة، لم يقل عشرون يقودون الدبابات، أو عشرون جنرالًا، فهذه تفاصيل أخرى، بل قال عشرون صابرون. فالصبر هو الميزة التي تمكّن هؤلاء العشرين من هزيمة المئتين.

فالصبر إذًا هو عامل قوة وتثبيت وتمكين ولأجل ذلك تجد في المرويات ذكرًا لنتائجه المرتقبة في الدنيا قبل الآخرة. والصبر يعطي الإنسان طاقةً جديدة لا على تحمّل ما مضى فقط بل على مواصلة العمل، لأنه لا يُقصد به كما ذكرنا الصبر بمعناه السلبي، بل بالمعنى الذي عرفناه من سيدنا العباس عليه السلام، الذي لم يحُل قطع يديه دون مواصلته الطريق، طالما كانت لديه طاقة على المضيّ، وفرصة لإيصال الماء ومواجهة العدو والدفاع عن الحسين، فقد واصل العبّاس صابرًا محتسبًا، فهذا الصبر

(1) سورة الأنفال، الآية 65.

هو الذي يعطينا الطاقة والقوة والقدرة على مواصلة العمل ومواصلة الطريق ويمنعنا من أن نسقط وننهار أمام شهوة أو رهبة أو تعب أو مصيبة أو فَقد عزيز أو كارثة أو جوع أو ما شاكل.

وفي الأحاديث الشريفة يُروى عن الرسولِ أنه يقول: «إنّ النصر مع الصبر»[1]، أي بدون الصبر لا يتحقق النصر. وفي قراءة للواقع، نجد أنّ المقاومة في لبنان إنما انتصرت بالصبر، بصبر شعبنا، من أهالي القرى والمدن، الذين هُجّروا وقُصفت بيوتهم، والذين عاشوا عشرات السنين على خطوط التماس، وبصبر المجاهدين، وصبر عوائل الشهداء، وصبر الجرحى وعائلاتهم، وصبر الأسرى والمعتقلين في السجون وعائلاتهم، صبر كل هؤلاء على الصعاب والتحديات، رغم الحرب الأمنية والعسكرية والتدميرية والنفسية والترهيبية والتخذيلية الكبيرة التي كانت تخاض ضدهم، فلأنّ المقاومة ورجالها المقاومين

(1) محمد الريشهري، ميزان الحكمة، الحديث 10068.

صبروا، ولأنّ بيئة المقاومة صبرت واحتضنت وواصلت الصبر، كانت كل هذه الانتصارات.

والصبر هو مفتاح الفرج، وبه يتحقق النجاح والظفر، ويحل الرضا والطمأنينة، وتُدرك معالي الأمور. فالساعي إلى بلوغ مستوى علمي معيّن، والساعي إلى تحصيل رفاه مجتمعه وحلّ مشكلاته، والساعي إلى الدفاع عن وطنه في مواجهة أعتى الطغاة من أجل الكرامة والسيادة، فكلّ هؤلاء لا يفلحون إلا بالصبر. والصبر يخفّف المحنة ويهوّن الهموم والمصائب، وهو كما ورد «أعون شيء على الدهر»، أي هو أكثر ما يعيننا على دهرنا وتحدياتنا.

ما مرّ إلى الآن كان فيما يخص ثمار الصبر في البعد الدنيوي، وأمّا في الآخرة، فإن هناك آيات قرآنيةً كثيرةً تشير إلى عظيم ما سيجزي الله سبحانه وتعالى الصابرين، وعظيم ما أعدّ لهم بما صبروا من جنّة ونعيم، ولكنا نكتفي بذكر آية واحدة، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ

وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[1]، وهذا أمر جدّ عظيم، فمن كان من فئة الصابرين فإنه لا يُنشر له كتاب، ولا يُنصب له ميزان، ولا يُحاسَب، ويُقال له تفضل إلى جنان الخُلد لتُوفّى أجرك كاملًا غير منقوص. وقد أشارت لهذا المعنى رواية عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول اللهِ يقول: «**إذا نُشرت الدواوين يوم القيامة ونُصبت الموازين** – في تلك المحكمة المحيطة بكل تفاصيل حياة الإنسان من لحظة التكليف إلى لحظة خروج الروح من الجسد، وحيث لا إمكان للتزوير أو الإنكار أو الكذب، حيث تشهد عليك الأرض والسماء والجدران، ويديك ورجليك، وجلدك، ولسانك، وعينيك، الذي ينجينا في هذا الموقف العظيم بحسب النبيِ يقول – **لم يُنصب لأهل البلاء ميزان** – والمقصود طبعاً أهل البلاء الذين صبروا لا الذين سقطوا وأصبحوا عملاء وخونة وفاسدين ومفسدين ولصوص ومجرمين وقتلة وتجّار مخدّرات ومشيعين للفحشاء والمنكر

(1) سورة الزمر، الآية 10.

في مجتمعهم – ولم يُنشر ديوان – ثم تلا هذه الآية – ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾»[1].

تصانيف الصبر

وفي تفصيل الكلام على موضوعة الصبر، فإن الروايات الشريفة صنّفت الصبر إلى عناوين هي: صبرٌ على الطاعة، وصبرٌ على المعصية، وصبرٌ على المصيبة. وبرغم وضوح معنى كل واحد من هذه العناوين إلا أنها تحتاج بعض تبيين.

فلو أخذنا مسألة الصلاة، فإنا نجد أن الالتزام بموضوع الصلاة في بدايات التكليف أمر يحتاج إلى جهد خاص، نعم قد يصبح فيما بعد أمرًا مألوفًا يقوم به الإنسان بشكل تلقائي، ولكن الكلام في البدايات، فالالتزام بأداء الصلواة الخمس بشكل يومي، وخصوصًا في أول وقتها، وبالأخص صلاة الصبح، هذا الالتزام يحتاج إلى الصبر. وكذلك الصوم، فإنه يحتاج إلى الصبر، خصوصًا في أيام الصيف

(1) محمد الريشهري، ميزان الحكمة، الحديث 3890.

وساعات النهار الطويلة، وكذا أداء مناسك الحج، والجهاد في سبيل الله فكل ذلك يحتاج إلى الصبر، أن يبذل المرء ماله في موارده الشرعية وما هو حق لله عليه، من خمس وزكاة، فهذا يحتاج إلى جهد وصبر. فكل ما مر هو من مصاديق العنوان الأول، وهو عنوان الصبر على الطاعة، فأداء الطاعات والتكاليف الإلهية يحتاج إلى كثير من الصبر.

وأما العنوان الثاني، وهو الصبر على المعصية، فذاك أنّ ترك بعض المعاصي لفئة من الناس يعتبر أمرًا صعبًا، ولا يتيسر إلا بالصبر عليه، فترك الغيبة مثلًا فيه مشقّة كبيرة عند بعض من اعتادها، فيلزمه الصبر، وترك الكذب عند من عوّد لسانه الكذب كذلك يلزمه الصبر، وكذا كف النفس عن اتباع الشهوات المحرمة يلزمه كثير من الصبر، خصوصًا عند من لا تتيسّر له طرق الحلال ويجد طريق الحرام مفتوحًا أمامه لإشباع رغباته وغرائزه فإن اجتناب هذا الطريق هو أمر مستصعب لا يتيسر إلا بالصبر، فالصبر من أهم المعينات في الابتعاد عن المعاصي.

وأما العنوان الثالث، وهو الصبر على المصائب،

بمعنى تحمّلها وعدم الانكسار أمامها، فمعناه واضح ويعيشه كل فرد منا. فتحمّل فَقد الأعزّة والأحبّة، وارتقاء الشهداء، ومصائب الجرحى، والفقر والجوع وشظف العيش، وغيرها من المصائب التي تعم بلدنا ومنطقتنا، بل وعالمنا، فهذه كلها من المصائب التي يحتاج الإنسان في مواجهتها إلى الصبر.

فعلى كل عنوان من هذه العناوين يُؤجر الإنسان إذا كان صبره لله عزّ وجلّ. وهنا يرتبط الأجر بالخلفيّة والنيّة. فلو أن أحدًا يصبر على مشقة الجوع والصوم في شهر رمضان ولكن بهدف التخفيف من وزنه، فإنه لا أجر له يوم القيامة عند الله، لأن هدفه كان دنيويًا وقد حصّله في الدنيا، ذاك أن الله سبحانه قد سنّ في الحياة الدنيا منظومة سنن تقتضي أن العامل ينال نتائج عمله في الدنيا مهما كانت نيّته، وهذا بحث آخر ليس هنا مورد بسطه. إذًا فمن كان صبره لله، وطاعاته لله، واجتنابه المعصية لله وانسجامًا مع أمر الله عزّ وجلّ ونهيه، فمن المحتّم أن يكتب الله له الأجر.

ورد في بعض الأحاديث، أن أفضل الصبر هو الصبر على المعصية. وإن كان لنا تفسير ذلك فنرجعه إلى أن الدوافع الموجودة لارتكاب المعصية قوية جدًا، فهنالك من جهة سعي إبليس الدائم وإصراره على دفعنا نحو المعصية، وهنالك شهواتنا ورغباتنا التي تدفعنا نحو إطاعة وساوس إبليس، ونفسنا الأمارة بالسوء، ما يلزم على الإنسان التحلي بقوة كبيرة لمقاومة هذه الدوافع، كي لا يقع في الحرام، فلا يشرب هذا الحرام ولا يأكل هذا الحرام ولا يقارب هذه العلاقة المحرّمة. فالإنسان كي يردع نفسه عن آفة الغضب، مثلًا - والذي يعتبر في الواقع من أكبر الآفات التي تؤدي إلى الوقوع في المعاصي - فإنه يلزمه الصبر، بأعلى مستوياته. وبهذا نفهم ما ورد في المرويات من أن أفضل الصبر هو الصبر على المعصية.

ولكن، ورد في مرويات أخرى أن أفضل الصبر هو الصبر على مرّ الفجيعة، وهي المصائب الشديدة القاسية. وإنه ليمكن الجمع بين الروايات بالقول إن الطاعات ليست جميعها بمستوى واحد من حيث التعب والمشقّة. فالصلاة

أهون من الصوم، والصوم في شهر رمضان ثلاثين يومًا أهون من الجهاد عشرات السنين، وقد يكون الصوم أهون عند البعض من إخراج الخُمس مثلًا، ومن هنا فالمشقة متفاوتة في الطاعات، وكذا هي متفاوتة في مواجهة المعاصي، فبعض المعاصي كي تتجنّبها لا يلزمك جهدًا كبيرًا وبعضها الآخر فيه إغراء كبير والشهوة تدفع نحوه دفعًا قويًا ويستند إليه الشيطان ويجند جنوده للإنطلاق منه في إغواء الإنسان واستقطابه، وهذا النوع تستلزم مواجهته جهدًا أكبر ومشقة أكبر. كذلك حال المصائب، فهي تتفاوت بين بسيطة وكبيرة وعظمى، فمصيبة أن يجرح شخص يده مثلًا أهون من مصيبة أن تُقطع يده، وهذه أهون من أن يموت ولده، وهذه أهون من أن يموت اثنين وثلاثة من أولاده في وقت واحد. ومن هنا يمكن القول إن الصبر الأفضل هو الصبر على ما فيه مشقّة أعظم، ولذلك قالت الرواية: على مرّ الفجيعة، أي التي يعتبر الصبر عليها صعبًا وقاسيًا، ولذلك هذا أفضل الصبر، إذ الأجر يكون على قدر المشقّة، وعلى قدر تحمّل الصعاب.

ولأجل ذلك نقول دائمًا إنَّ صبر الحسين عليه السلام وأصحابه وأولاده على ما جرى في كربلاء، وصبر زينب عليها السلام ومن معها من النساء والأطفال في كربلاء، هو أعظم الصبر وأفضل الصبر وأكبر الصبر، بلا جدال ونقاش، لأنّه صبرٌ على مرّ الفجيعة.

مصادر تحصيل ملكة الصبر

وبعد أن تحدثنا في دلالات ومعنى الصبر، يبقى أن نبسط الكلام في مسألة مهمة هي معرفة المصادر التي ينبغي اللجوء إليها للتحلي بهذه الفضيلة الأخلاقية، فمن أين نأتي بالصبر؟

ونقول، أول مصدر يمكن اللجوء إليه لتحصيل الصبر هو مَنْ عنده خزائن السموات والأرض، وهو الله سبحانه وتعالى. فينبغي أن نلجأ إليه سبحانه، وأن نطلب منه ونرجوه أن يعيننا وينزل علينا من عنده الصبر على ما يواجهنا من ابتلاءات، والله سبحانه كريم، جواد، رحيم، لطيف، رؤوف، لا يمنع عن عباده عطاياه، فلو أن عبدًا

مبتلًى بمصيبة، أو بشهوة، أو بقلّة عزم على أداء طاعة، استعان به وطلب منه أن يصبّره ويمكّنه ويقوّيه ويثبّته، فإن الله سيستجيب له، فإنه سبحانه هو أرشدنا وقال لنا استعينوا بالصبر والصلاة، وهو الذي وعدنا وقال إنّ الله مع الصابرين، والمعية المذكورة في الآية هي بحسب التفاسير معية الإعانة والمساعدة، فالله – كما يعتبر المفسرون –يعين الصابرين، ويساعدهم، ويكون معهم، ولا يتركهم، ولا يكلهم إلى أنفسهم ويقوّيهم وينصرهم ويسدّدهم.

فالأمر الأول أن نطلب الصبر من الله سبحانه وتعالى، وهو وعدنا بأن يكون معنا إن تصبّرنا. ولذلك ورد في الحديث عن رسول اللهِ: «**من يتصبّر** – أي يطلب من الله سبحانه وتعالى ويدعوه أن يعينه ويصبّره – **يصبّره الله**».

ثانيًا، ذكر الله سبحانه وتعالى، إذ بغض النظر عن الدعاء وطلب العون وطلب الصبر الذي ذكرناه، فإن نفس ذكر الإنسان لله سبحانه عند مواجهة تحدياته الشخصية أو العامة، نفس هذا الذكر يعين الإنسان ويمكّنه ويقوّي صبره.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]، وهذا قانون إلهي في الحياة الدنيا، ومعنى قوله «بشيء من الخوف» هو فقدان الأمن وهو ما يحدث اليوم في الكثير من البلدان، «والجوع»، إشارة إلى صعوبات المعيشة وسوء الحال الاقتصادية، «ونقص من الأموال والأنفس»، إشارة إلى فقدان الأحبّة، «وبشر الصابرين»، فمن هم هؤلاء؟ وما الذي يصبّرهم على كل ذلك لينالوا هذه البشارة؟ قال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[2]، وهذا من مصاديق ذكر الله سبحانه.

وإنّ من اللافت أنّ هذا الفهم منتشر في ثقافتنا الشعبية والتربوية، حيث إن الواحد من أبناء المجتمع الديني حين تلقيه خبرًا سيّئًا أو محزنًا، كموت حبيب،

(1) سورة البقرة، الآية 155.

(2) سورة البقرة، الآية 156.

يقول ودون سابق تفكير ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، وهذا ما تربينا عليه وتعلمناه من الآباء والأجداد، وقد أصبح جزءًا من ثقافتنا الشعبية التي أدخلها الدين إلى حياتنا.

والمقصود بالذكر هنا الذكر بوعي وفهم. فعبارة «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» عند التأمّل فيها، فـ«إنّا لله» تعني أن وجودنا ملكٌ لله عزّ وجلّ، يفعل بنا ما يشاء، هو يحيينا ويميتنا، يعزّنا ويذلّنا، ويرفعنا ويضعنا، ويبتلينا، ويعفو عنّا، ويحاسبنا، وينصرنا... فنحن وأولادنا وأزواجنا عبيد له، وما نملك من مال وثمار وغيرها ملك يديه، وحياتنا ومصائرنا معلقة بمشيئته. و﴿إِنَّا إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، تأكيد على أن مرجعنا بعد الموت سيكون إليه سبحانه، وهذا ما يوفر علاقةً جيدةً بموت وفقدان الأنفس والأحبّة والأعزّة لأنهم ذاهبون إليه. فتكرار هذه العبارة، وما يماثلها كعبارة «لا حول ولا قوة إلا بالله» وعبارة «ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله»، يُعين الإنسان على المستوى النفسي، فيُثبّته

ويُهدّئه، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[1].

وهؤلاء الذاكرون لله عند المصيبة أو التحدّي، أو عند ورود ما يحتاج إلى الصبر، فالله سبحانه يقول عنهم: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[2]، فمن خلال هذا الذكر لله عزّ وجلّ، الذي يدل على حضور فكرة أنّ الله حاضر ويرانا في أذهاننا، ومن خلال فهمنا الحقيقي لهذا الذكر، فإن الله يهبنا بحسب الآية ثلاثة أشياء:

1. صلوات من ربهم. ولنتخيّل عظمة أن يصلّي الله سبحانه على الإنسان، وصلاة الله عليه هنا معناها أنه يباركهم ويزكّيهم ويرحمهم ويتلطّف بهم.
2. رحمة من الله.
3. الهداية. فيهديهم إلى الطريق الصحيح، ويحفظ لهم تماسك عقولهم وأعصابهم، وصلابة إرادتهم،

---

(1) سورة الرعد، الآية 28.

(2) سورة البقرة، الآية 157.

فيعينهم ويأخذ بيدهم ليكملوا الطريق، ويتجاوزوا المصيبة والمعاناة، والتحدي، والخطر، والشهوة، والرهبة، وإبليس وجنوده، والنفس الأمّارة بالسوء.

وهكذا عند الطاعة، فإن ذكر الله وتذكّر ما أعدّه الله سبحانه وتعالى لهذه الطاعة وللعاملين بها من أجر وثواب وجنان ونعيم وخُلد وعزّ وشرف وكرامة في الدنيا والآخرة، يشوّق الإنسان على فعل الطاعة ويصبره على مشاقها. وكذا عند المعصية، إذ عندما يتذكّر الإنسان ربه ونهي الله له عن ارتكاب المعصية، وما أعدّه من عقاب وحساب وعذاب، فإنه يخاف وتأخذه الرهبة، وهذا الذكر يصبّره ليرتدع عن المعصية.

وقد جمعت هذه المعاني في حديثٍ لرسول اللهِ يقول: «الصبر أربع شعب: الشوق، والشفقة، والزهادة، والترقّب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق عن النار أو من النار اجتنب عن المحرّمات - وفي رواية أخرى رجع عن المحرمات - ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات - في رواية أخرى استهان بالمصيبات

– ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات»[1]، لأنه سيدرك أن الوقت غير متاح وأنها لا تُعلم الفترة الباقية من الحياة، فيجهد للاستفادة من الوقت ويسارع إلى الخيرات.

الأمر الثالث، التحلي بالمستوى المطلوب من الفهم والانتباه، لمسائل كثيرة أبرزها أن حياتنا الدنيا محدودة فانية زائلة، فالإنسان حين يستحضر هذا الفهم بشكل دائم، فإنه ستهون عليه كل المصائب مهما تعاظمت وكَبُرت. فالعلم بأن الدنيا وما فيها، مما نربحه أو نخسره، ومما نفقده أو نحصل عليه، زائل فانٍ محدود، وهو العلم المستند إلى الفهم العقائدي الصحيح، يهوّن المصيبة، ويقوي عامل الصبر عليها.

الأمر الأخير، وهو وارد في الروايات أيضًا، هو العمل على ضبط ما يقابل الصبر وهو الجزع. ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام ما مفاده أن الجزع لا يغير في المقادير شيئًا، لأن المصيبة وقعت، وسواء جزعنا أو صبرنا فإن

(1) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الجزء 1، الصفحتان 74 و75.

ذلك لن يغيّر من الواقع شيئًا، فإن الجزع لا يعيد ميتًا إلى الحياة، ولا يعيد ما خسرنا من مالنا أو ما فقدنا من أرضنا المحتلة. ومضافًا إلى ذلك فإنه لا يتبعه أي أجر أخروي، فلا فائدة دنيويةً منه ولا أخروية. أما الصبر ففائدته الأخروية قد أشرنا إليها، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]، وفائدته الدنيوية أنّ به نستطيع متابعة حياتنا، فنترحم على من مات وندعو له، ونسعى لاستعادة أرضنا وخيراتنا وكرامتنا وأمننا، وكل ما خسرنا، بل ونسعى للتعويض بما هو خير مما خسرنا.

إرشادات مسلكية في ظل واقع اليوم

آخر ما أود التطرق إليه هو أنه في مواجهتنا للتحديات الكثيرة التي ذكرناها، وبالأخص في هذا الزمن الصعب، تترتب علينا جملة أمور تلقى على عاتقنا على نحو الوجوب، وهي واجبات عبادية وسلوكية، على المستويين الشخصي والعام، ذاك أن كل واحد منا مسؤول عن أهله

---

(1) سورة الزمر، الآية 10.

وأبناء مجتمعه وعن مصيرهم ومستقبلهم، ولا تنحصر هذه المسؤولية بعلماء الدين أو بالزعماء السياسيين، بل كل مسلم يتحمل هذه المسؤولية العامة.

وما يزيد الأمر حساسيةً هو أن المسؤوليات الملقاة في زمننا هذا أصعب منها في أي زمن مضى، ونحتاج لتأديتها إلى جهد كبير. ذاك مضافًا إلى واقع أن تفشي المعاصي في هذا الزمن هو أكثر منه في أي زمن مضى، فلا أتصور أن وسائل تحقيق المعصية وإمكانيات وقوعها والشهوات والإغراءات قد كانت متاحةً للناس في أي زمن سابق كما هي متاحة ومتوفرة اليوم، إذ تجد اليوم أن الإنسان معرض على مدار الدقيقة بل الثانية للمعاصي والذنوب، فلم يشهد المؤمنون على مر التاريخ زمنًا كهذا، ولعل زمننا هذا هو الزمن المشار إليه في حديث النبيّ الذي يقول إنه سيأتي على الناس زمان يكون القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، فبقدر ما يستصعب الإنسان حمل الجمر والقبض عليه، يستصعب المؤمن في هذا الزمن القبض على دينه.

وذاك مرجعه إلى أنّ الإنسان معرّض حيثما ولى إلى ارتكاب المعاصي، في بيته، أثناء مشاهدة التلفاز، أثناء قراءة جريدة أو مجلة، والأخطر موضوع شبكات الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، التي لا يخلُ منها بيت اليوم، فكل أطر المعصية متاحة، وخصوصًا في بلد مثل لبنان، حيث لا يُلتزم بقوانين لضبط هذه المسائل، وفي حال وضعت القوانين فإنه يظهر من يطالب بحرية الرأي والحريات العامة. في الأزمنة الماضية كان بإمكان الأهل وحفاظًا على أبنائهم من الانحراف الأخلاقي أن يمتنعوا عن اقتناء تلفاز في بيوتهم، وفي حال اشتروه يضبطون موضوع القنوات، أما اليوم فهذه المرحلة قد مضت، وكذا مرحلة أن تمنع كتابًا أو مجلةً أو قناةً من أن تُبث، فكلها مراحل مضت ولا عودة لها في زمن الاتصالات والإنترنت، بل الخطر قائم وأبواب المعصية مفتوحة، من الكتاب والورقة والكلمة والصورة والأغنية والخطاب وغيره، بل وأصبح يحمل الآن في الجيوب، في جيب أصغر شاب أو شابة إلى أكبر رجل وامرأة، فيحمله الشاب

في جيبه ليتسنى له وفي أي وقت أن يفتح ما يريد من المواقع المدمرة ويسمع ويرى ما يريد فيها ويتحدث مع من يريد. فبالإمكان القول إنه لم يُتح في تاريخ الإنسانية لإبليس يومًا ما يتاح له اليوم من الجنود من جن وإنس ووسائل إغراء وانحراف وتزيين لدفع الإنسان إلى ارتكاب المعصية ومخالفة الله سبحانه وتعالى وإطاعة النفس الأمّارة بالسوء، ولم يمر زمان كزماننا الذي نحن فيه.

وكما في موضوع المعاصي فكذا في موضوع المصائب، فإن البشرية معرضة اليوم لوقوع المصائب أكثر من أي زمن مضى، حيث كان قتل ألف شخص في حرب مثلًا يحتاج في الأزمنة الماضية إلى أيام بل وأسابيع، أما اليوم فإن هجومًا جويًا على منطقة مأهولة قد يودي بأرواح ألف شخص في دقائق. واليوم، بسبب التطور التكنولوجي والصناعي على مجالات مختلفة، فإن الوسائل والتقنيات المضرة بالإنسان تضاعفت أعدادها وآثارها القاتلة، فإن الأمراض، والجراثيم، والحروب، والأسلحة المدمرة، ووسائل الإعلام، وإمكانية إثارة الفتن، والحروب

الاقتصادية وما شاكل، مضافًا إلى أطماع الدول الكبرى بغيرها من الدول، كل ذلك بات مصدرًا مهددًا لحياة مجتمعات بأسرها، فإن من الممكن اليوم محاصرة دولة بأكملها وتجويع أبنائها والوصول بهم إلى أسوأ الظروف، ونحن نتحدث عن وقائع موجودة، وهذا ما يحدث في غزة وفي اليمن وغيرهما، فليست المسألة مسألة تجويع فرد أو أفراد من مجتمع، بل تجويع مجتمع كامل، دول بأكملها يكون مستوى اقتصادها مرتفعًا فينهار فجأةً نتيجة ما يسمى بالاغتيال الاقتصادي الذي تمارسه دول كبرى كأميركا كما فعلوا في ماليزيا وغيرها، كل ذلك عبر بعض التكتيكات في أسواق البورصات العالمية ما يودي بقيمة العملة الوطنية فينهار الاقتصاد الوطني وتحل المصائب.

إذًا، نحن في زمن صعب. وفي هذا الزمن الصعب، وفي مشقاته القوية والكبيرة، نحن نحتاج إلى الاستعانة بالصبر، وهو مستعاننا في الدرجة الأولى، لنواصل حياتنا وإيماننا وجهادنا وثباتنا، ولنصنع مصيرنا كما أراده الله سبحانه وتعالى لنا في الدنيا والآخرة.

وقفة على موضوع الاختلاط

إن من جملة الأمـور الـواجـب علاجـها وضبطـها في مجتمعنا هو موضوع الاختلاط. وألفت هنا إلى أن كلامي ليس على نحو الإلـزام لأحـد فلكلٍّ حريته في اختيار أسلوب حياته ودينه، ولكني أتحدث عن بيئتي، وعن الفئة التي تعتبر نفسها فئة ملتزمة بتعاليم ديننا وبتوجيهاته وإرشاداته.

إننا نلاحظ في هـذه الأيـام تفشي ظاهـرة الاختـلاط بشكل ملحوظ في مجتمعات المتدينين وبين أفرادها، وهـذه المسألة يلزمها إعادة مراجعة وضبط. فلقد بات من المألوف اليوم مثلًا أن تجد بين جماعات الملتزمين لقاءات بين زميلين في عمل واحد متزوجيَن يجتمعون على طاولة غداء أو عشاء أو في سهرة ودية تتواجد فيها معهم زوجاتهم، وقد تمتد هـذه اللقاءات لساعات ويتخللها المزاح والضحك والأحاديث، هـذا الأمر يعتبر عند كثير من الناس أمرًا عاديًا، إلا أنه يؤدي في بعض الحالات -

وهنا لن أتناول الجانب الفقهي والشرعي – إلى جملة من المحرّمات، أولها نفس هذا الاختلاط والاجتماع غير المضبوط، ثانيها ما قد يقع من نظرات الريبة المحرمة، ذاك مضافًا إلى مسائل كالمزاح، والغيرة، والحسد، التي يستغلها الشيطان ليحركها، ما يؤدي إلى وقوع مشاكل كثيرة بين الزوج وزوجته تؤدي أحيانًا إلى الطلاق، لما يتراكم مع الوقت، بل إن من الممكن لهذه الجلسات لو خلت من الضوابط أن تؤدي بالأمر – كما يجري في الكثير من المجتمعات الأخرى – إلى علاقات غير مشروعة، إلى ما يسمى بالخيانة الزوجية، والعياذ بالله، وهذا نشهده في المجتمعات الغربية غير المضبوطة بضوابط الشرع، حيث يؤدي الاختلاط، بما يتخلله من المزاح والضحك والترف واللهو إلى علاقات غير شرعية، ما يؤدي تاليًا إن اكتُشفت هذه العلاقات إلى الطلاق وخراب البيوت، بل وإلى وقوع جريمة قتل أحيانًا، خصوصًا في مجتمعاتنا الشرقية، فكله قد يبدأ من جلسة كهذه.

إن إبليس كما اشرنا سابقًا يبدأ مع الإنسان بالمسائل

السهلة الهيّنة، والتي تندرج ضمن خانة شبهات الحلال والحرام، وحدود الحلال والحرام، التي تكون غير واضحة أحيانًا عند الناس، لأن رسم حدود الحلال والحرام لمواضيع كهذه ليس بالأمر السهل. فمن كان من الناس حريصًا حقًا على عائلته، وعلى دينه، وعلى تطبيق قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[1]، فإن عليه أن يتجنّب حتى الشبهة، وأن يحتاط فلا يقحم نفسه في مواردها، كي لا يقع فيما بعد في شراك المحرمات. لن أدخل في كثير من التفاصيل، لأننا شهدنا ونشهد كل يوم ما يجري في المجتمعات غير المحافظة، كالمجتمعات الغربية، فلو رجعنا إلى أصل المشكلة، فقد يكون الاختلاط المحرم، أو النظرة المحرمة.

ولذلك، فعلينا أن نبدأ بمعالجة الأسس والبديهيات البسيطة لكي لا نواجه ما هو أصعب وأسوأ. فإننا في هذا الزمن، ومع ما تبثه الفضائيات والتلفزيونات والأقمار

(1) سورة التحريم، الآية 6.

الصناعية، ومع ما ينتشر على شبكات الإنترنت، فإن الزوج أو الزوجة قد يتململ من شريكه، ولا يرى فيه مع مرور الوقت ما يلفته مما يراه يوميًا على هذه الوسائل، فلا يحتمل ان يحصر حياته معه، فيجد في الاختلاط ملجأً إلى التواصل مع أشخاص آخرين، والله يعلم ما قد يؤدي إليه ذلك من مخاطر.

ومخاطر الاختلاط لا تنحصر بهذا النموذج، بل تشمل حالات كثيرة نجدها في مجتمعاتنا اليوم، في الجامعات والمدارس والوظائف والبيوت، ففي مناخ كالذي ذكرنا، ومع وجود مخاطر كالتي أشرنا إليها، فنحن بحاجة إلى كثير من التنبه للحفاظ على مظاهر العفّة، وعلى موارد التحصين. مثلًا، قد يكون لرجل مؤمن ابنة صبية عمرها بين 16 و17 سنة فيأتي لها بأستاذ عمره بين 20 و30 سنة لإعطائها دروسًا خاصة، فيجلسان وحدهما ساعةً أو ساعتين، وقد سبق أن ذكرنا أن إبليس، الذي تحدّث مع نوح ومع موسى ومع أنبياء الله العظام من أولي العزم وغيرهم، عندما سُئل: متى تمسك بالإنسان؟ قال: عندما

يخلو رجل بامرأة لا تحل له، فإبليس الذي هو رأس الغواية يعتبر هذه من أسنح الفرص ليمسك الإنسان، ويتابع كما في الرواية: فأنا صاحبه دون أصحابي، أي يأتيه إبليس بنفسه لا عبر أحد من جنوده، فموضوع كهذا إذًا لا ينبغي التهاون فيه، فحتى لو كان الأستاذ شخصًا ملتزمًا ومتديّنًا والفتاة متديّنةً وعفيفةً وشريفة، فهذه الخلوة قد توقعهم في الشبهة، وهذا الموضوع يُبتلى به كبار القوم، من الأولياء العظام والعبّاد والزهّاد، وكل هذا وارد في الروايات والأحاديث.

فلماذا نضع أنفسنا وشبابنا وبناتنا وزوجاتنا وعائلاتنا في موقع كهذا؟ لماذا نورطهم؟ ولماذا نفتح على أنفسنا هذا الباب؟ هناك فساد ينبغي محاربته واقتلاعه، وأحيانًا يجب أن نسدّ باب الفساد حتى لا يدخل ولا تصل النوبة إلى مواجهته، وموضوع الاختلاط باب من أبواب الفساد التي أحببت أن الفت إليها والتحذير منها، لما له من الأثر في تدمير المجتمع.

الخاتمة

في كل الأحوال، نحن نحتاج في مواجهة تحديات حياتنا إلى الصبر، وهو درس من أعظم دروس كربلاء - لو أردنا اختصار كربلاء كلها - إذ من لحظة وقوف الحسين عليه السلام أمام والي المدينة وقوله له عن يزيد بعد ذكر خصائله السيئة والتقريع به: «ومثلي لا يبايع مثله» بدأت المعركة والمواجهة، ومن هذه اللحظة تحديدًا بدأت دروس الصبر، الصبر على الموقف وعلى تبعات الموقف وعلى تداعيات الموقف في المدينة، التي كان أولها أن يجمع عياله وأنصاره وأصحابه وأمواله ويغادر وطنه وبيته وبقية أهله ويخرج من المدينة. وامتدت المواجهة إلى وقت خروجه العلني، حيث كان من الممكن أن يتعرض لمواجهة أمنية وعسكرية، ثم دخوله إلى مكّة علنًا، وإقامته فيها في مكان علني، والتقائه بالناس علنًا، حيث ضاق صدر يزيد به فأرسل إليه من يقتله في مكة ولو وجدوه معلقًا بأستار الكعبة.

فتداعيات الغربة، والهجرة، وترك الوطن، وتحمّل مشاق الطريق، ومخاطر الطريق، كل هذا احتاج إلى صبر الرجال والنساء والولدان.

ومن مكة إلى الكوفة، وصولًا إلى كربلاء وما جرى في كربلاء من بطولات، وتحديات، ومواجهات دامية، وأحداث مؤلمة ومأساوية، ففي كل مشاهد كربلاء يوجد الصبر، كما وبعد كربلاء إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى الشام، ومن الشام إلى المدينة، كان كله مشهد صبر وثبات وتحمّل وتحدّي.

وعندما يقدم الخطباء الحسينيون أحداث واقعة عاشوراء بشكل محزن فلا شك في أنها محزنة، ولكن مقتضيات المجلس والخطابة تلزمهم أحيانًا ببعض المبالغات في التعبير عن البُعد الإنساني، وذلك للتأثير في وجدان المستمعين، ولكن طرح المشهد بالدقّة، يقتضي أن نوضح أنه بالإضافة إلى ما حملته قضية الحسين من أحزان، فإنها حملت نداءً وعنوانًا ورسالةً، سمتها الأساسية والعامة هي موضوع الصبر، والثبات والتمكين والتحدّي.

وهنا لا بد أن نرفض كل مشاهد التضعيف التي تنسب

مثلًا للسيدة زينب عليها السلام بعد استشهاد الحسين عليه السلام،
حيث سمعت أن بعض الخطباء قال مرةً إن السيدة زينب
– والعياذ بالله – كشفت عن رأسها أمام الناس وخلعت
حجابها، فهذا أمر مرفوض نسبته لجبل الصبر وربة العفة،
أفهكذا نقدّم السيدة زينب للعالم؟ زينب التي لا يوجد
نظير لها في الصبر، فهذه التي تخلع حجابها هي ليست
زينب بنت عليّ بن أبي طالب، وليست زينب بنت
فاطمة الزهراء، وليست زينب بنت رسول اللهِ.

وللأسف، ففي بعض الموارد تصدر الإساءة لأهل البيت
وللحسين وللنبي وللسيدة زينب ولبنات الحسين عليهم السلام
بشكل لا يُطاق ولا يُحتمل، وهو أمر معيب ومؤلم.

كربلاء هي الصبر الجميل، كربلاء هي الصبر العزيز،
كربلاء هي صبر المنتصرين، صبر الشامخين، صبر
الأقوياء، صبر المؤمنين الذين حفظوا لنا هذا الإسلام
وحفظوا لنا هذه الأمة.

في كل الأحــوال، نـحـن نحتاج في مواجهة تحديات حياتنا إلى الـصـبر، وهـو درس مـن أعظم دروس كربلاء (...) كربلاء هي الـصـبر الجـمـيـل، كـربـلاء هي الصبر العزيز، كربلاء هي صبر المنتصرين، صبر الشامخين، صـبر الأقـويـاء، صـبر المؤمنين الذين حفظوا لنا هـذا الإسـلام وحفظوا لنا هذه الأمة.

En English
Fr French
Ar Arabic
Fa Persian
Tr Turkish
Sw Swahili
Ur Urdu
Es Español
Ha Hausa
Bs Bosanski

دار المودة
للترجمة والتحقيق والنشر

ISBN 978-614-464-016-6
9 786144 640166